سلسلة الرسائل المكية (٩)

وميض من الحرم

خطب ومواعظ من المسجد الحرام

المجموعة الرابعة

بقلم

سعود بن إبراهيم بن محمد الشريم

إمام وخطيب المسجد الحرام

دار الوطن للنشر



وميض من الحرم

خطب ومواعظ من المسجد الحرام

ح دار الوطن للنشر والتوزيع - ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشريم، سعود إبراهيم

وميض من الحرم – الرياض.

٢٣٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٥ – ٢٦٣ – ٢٨ – ٩٩٦٠

(المجموعة الرابعة : خطب ومواعظ)

١-الخطب الدينية *٢- خطبة الجمعة* *أ- العنوان*

ديوي ٢١٣ *٢١/٤١٧٧*

رقم الإيداع : ٢١/٤١٧٧

ردمك : : ٥ – ٢٦٣ – ٢٨ – ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م

دار الوطن للنشر – الرياض

هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس : ٤٧٢٣٩٤١ – ص ب : ٣٣١٠

- البريد الالكتروني : pop@dar-alwatan.com
- موقعنا على الانترنت : www.dar-alwatan.com

مقدمـــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده، وبعد:

فقد يسَّر الله لي بمنِّه وفضله إخراج المجموعة الأولى والثانية والثالثة من الخُطَب التي ألقيتها من منبر المسجد الحرام، وكان من فضل الله عليَّ أنْ لَقِيَت قبولاً لدى جملة من الناس لاسيما الخطباء في داخل بلاد الحرمين وخارجها، والفضل في ذلك كلّه للباري جلَّ شأنه، لا حرمني الله شكر نعمته والثبات على دينه حتى الممات.

وبعد سؤالات متعددة توالت عليَّ تترا من قِبَل بعض المحبين عن إصدار المجموعة الرابعة وجدت لزاماً عليَّ إجابة طلابهم وتكحيل عيونهم بما أبدوه لي من رغبة مشاهدتها مطبوعة، فها هي تأخذ طريقها بإذن الله إلى خروجها بين يدي القرَّاء، راجياً خالقي جلَّ وعلا أن يعمَّ نفعُها، وأن يغفر لي ما كان فيها من تقصير أو خطأ، إنه سميع مجيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب.

قالـه مقيـده

سعود بن إبراهيم الشريم

مكـــة ـ ص. ب ٧٥٤٥

* * *



«خواطر بين يدي الخطيب»

(الحلقة الرابعة)

لقد سبق في حلقات مضت في المجموعة الأولى والثانية والثالثة التأكيد على أن إيرادي للخواطر بين يدي الخطيب إنما هي من باب الإفادة وتقييد الأوابد واللقط لِمَا قد لا يوجد مجتمعاً بهذه الصورة في غير هذا المكان. ولا يعني ذلك أن يكون كلُّ ما يُورد هنا يمثِّل رأيي القاطع، كلا إذ الأمر ليس هكذا مطلقاً، ولكن ما نصصت على نصره فهو مما ترجَّح عندي، وما أطلقت القول فيه فإنما أوردته من باب عموم الفائدة التي لا يستغني عن تحصيلها كل خطيب، وما قصدي في ذلك إلا حصول المثوبة والأجر من الله جلَّ شأنه، فما في ذلك من صواب فهو منه وحده، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان منه، ولا حول ولا قوة لي إلا بالله فهو نعم المولى ونعم النصير.

(١) «خطبة العيدين هل هي قبل الصلاة أو بعدها؟»:

روى الشيخان في صحيحيهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر يصلون العيدين قبل الخطبة»، وفي رواية لهما عن ابن عباس: «أبوبكر وعمر وعثمان. . .»، وعندهما أيضاً من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى، وأول شيء يبدأ به الصلاة، ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس والناس على صفوفهم فيعظهم ويأمرهم».

قلت: أُخِّرت الخطبة عن الصلاة؛ لأنها لم تكن واجبة فجُعلت في

وقت يتمكن من أراد تركها، بخلاف خطبة الجمعة كما قال ذلك الموفَّق رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

ونقل الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع على عدم وجوب الخطبة في العيدين.

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «وجملته أن خطبتي العيدين بعد الصلاة، لا نعلم فيه خلافاً بين المسلمين إلا عن بني أمية. ورُوي عن عثمان وابن الزبير أنهما فعلاه ولم يصح ذلك عنهما، ولا يعتدُّ بخلاف بني أمية؛ لأنه مسبوق بالإجماع الذي كان قبلهم، ومخالف لسنة رسول الله ﷺ الصحيحة، وقد أنكر عليهم فعلهم، وعُدَّ بدعة ومخالفاً للسنة.

قلت: أما ما روي عن عثمان رضي الله عنه فقد رواه ابن المنذر بسند صحيح إلى الحسن البصري قال: «أول مَنْ خطب قبل الصلاة عثمان، صلى بالناس ثم خطبهم ـ يعني على العادة ـ فرأى ناساً لم يدركوا الصلاة ففعل ذلك» أي صار يخطب قبل الصلاة. كذا ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

وأخرج البخاري ومسلم من حديث البراء بن عازب قال: قال النبي ﷺ: «**إن أول ما نبدأ في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر. . . الحديث**».

قال ابن حجر: هذا مشعرٌ بأن الكلام وقع قبل إيقاع الصلاة، فيستلزم تقديم الخطبة على الصلاة بناءً على أن هذا الكلام من الخطبة، ولأنه عقب الصلاة بالنحر. اهـ.

وقال الكرماني: «المستفاد من حديث البراء أن الخطبة مقدمةٌ على الصلاة». اهـ.

وقال ابن بطال: «غلط النسائي فترجم بحديث البراء فقال: «باب

الخطبة قبل الصلاة».

قال الحافظ ابن حجر: «والمعتمد في صحة ما تأولناه رواية محمد بن طلحة عن زبيد في هذا الحديث بعينه بلفظ: «خرج النبي ﷺ يوم أضحى إلى البقيع فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وقال: «**أول نسكنا في يومنا هذا أن نبدأ بالصلاة ثم نرجع فننحر**» الحديث. فتبيَّن أن ذلك الكلام وقع منه بعد الصلاة. اهـ.

إشكال ودفعه:

مرَّ معنا أن عثمان ثبت عنه تقديم الخطبة على الصلاة، وكذلك عن عمر رضي الله عنه كما قال الحافظ أنه مما رواه عبدالرزاق وابن أبي شيبة بإسناد صحيح خلافاً للقاضي عياض ومن تبعه فيما زعموه أنه لا يصح عن عمر.

قال الحافظ عما جاء عن عمر وعثمان: «لكن يعارضه حديث ابن عباس المذكور في الباب الذي بعده، وكذا حديث ابن عمر، فإنْ جُمع بوقوع ذلك منه نادراً وإلا فما في الصحيحين أصح».

وقال العراقي عن أثر عمر: «وهذا الأثر وإن كان رجاله ثقات فهو شاذ مخالف لِمَا ثبت في الصحيحين. وأما رواية عثمان فلم أجد لها سنداً».

وقال ابن العربي: «يقال: إن أول مَنْ قدَّمها عثمان، وهو كذبٌ لا يُلتفت إليه».

تتمـــة:

بناءً على ما سبق فقد اختُلِف فيمن هو أول من قدَّم الخطبة على الصلاة في العيدين، فقال بعضهم: أول من فعل ذلك مروان بن الحكم كما عند مسلم في صحيحه. **وقال آخرون:** إنه عثمان كما مرَّ سابقاً. **وقال**

آخرون: إنه عمر كما مرَّ ذكره. **وقال آخرون**: هو معاوية لِمَا رواه الشافعي بنحو حديث ابن عباس وزاد: «حتى قدم معاوية فقدَّم الخطبة». وروى مثل ذلك عبدالرزاق. **وقال آخرون**: إن أول من فعل ذلك زياد بالبصرة. روى ذلك ابن المنذر عن ابن سيرين.

قال القاضي عياض: ولا مخالفة بين هذين الأثرين وأثر مروان؛ لأن كلاًّ من مروان وزياد كان عاملاً لمعاوية، فيُحمل على أنه ابتدأ ذلك وتبعه عماله، والله أعلم.

قال سماحة شيخنا العلامة عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لبلوغ المرام: «والأشهر أن أول من فعل ذلك مروان بن الحكم في خلافة معاوية حيث كان أميراً على المدينة».

تنبيــــه:

تقدَّم ذكر قول ابن قدامة بأن تقديم الخطبة على الصلاة في العيدين بدعة. مع أنه ورد عن عثمان، فهل يكون ما فعله عثمان بدعة؟

فالجواب: أن ابن قدامة يرى عدم صحة أثر عثمان؛ فلأجل هذا أطلق لفظ البدعة وإلا لو ثبت عنده لكان هذا اجتهاد من عثمان خالف به سنة نبوية؛ فتقدَّم السنة النبوية على السنة الراشدة، والله أعلم.

(٢) «هل للعيد خطبتان؟»:

قال الخرقي في مختصره: «فإذا سلَّم ـ أي من صلاة العيدين ـ خطب بهم خطبتين يجلس بينهما».

وقال ابن قدامة: «إن خطبتي العيدين بعد الصلاة لا نعلم فيه خلافاً بين المسلمين...».

قلت: قد ورد في الجلوس بين خطبتي العيد حديث مرفوع رواه ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه أنه قال: «خرج رسول الله ﷺ يوم فطر أو

أضحى، فخطب قائماً ثم قعد ثم قام». وفي إسناده إسماعيل بن مسلم وهو ضعيف كما ذكر ابن حجر في التلخيص.

وعن عبيد الله بن عبدالله بن عتبة رضي الله عنه قال: «السنة أن يخطب الإمام في العيدين خطبتين يفصل بينهما بجلوس» رواه الشافعي.

قال الشوكاني: وعبيد الله بن عبدالله تابعي كما عرفت، فلا يكون قوله من السنة دليلاً على أنها سنة النبي ﷺ كما تقرر في الأصول.

وقال الحافظ ابن حجر عمن يرى الخطبتين في العيدين: «مقتضاه أنه احتج بالقياس».

(٣) «هل يجلس الخطيب في صلاة العيدين بعد أن يصعد المنبر؟»:

عن مالك رحمه الله روايتان في ذلك.

وللشافعية فيه وجهان.

وعند الحنابلة قيل: يجلس بعد صعوده المنبر قبلهما ليستريح ويرد إليه نَفَسُه، ويتأهب الناس للاستماع. وحُكي أن هذا هو الصحيح من المذهب نصَّ عليه. كما في خطبة الجمعة.

قال ابن قدامة: وقيل: لا يجلس عقيب صعوده؛ لأن الجلوس في الجمعة للأذان ولا أذان هاهنا.

قلت: الصواب أنه لا يجلس؛ لأن الجلوس للأذان، ولأن أحاديث وصف صلاة العيدين في الصحيحين وغيرهما لم يأت فيها ما يدل على أنه ﷺ كان يجلس قبل أن يخطب في العيدين. ففي الصحيحين من حديث ابن عباس وفيه: «فصلى العيد ثم خطب...» ولهما من حديث البراء وفيه: «فصلى العيد ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه، وقال..» ولهما من حديث جابر وفيه: «فبدأ بالصلاة ثم خطب...».

ولهما من حديث أنس وفيه: «أن رسول الله ﷺ صلى يوم النحر ثم خطب. . .» وغير ذلك من الأحاديث. ولم يرد فيها أنه جلس قبل الخطبة. بل سيأتي ما يدل على الخلاف، هل كان النبي ﷺ يتخذ منبراً في العيدين أم لا؟ فعلى من لا يرى أنه اتخذ منبراً فيكون الجلوس متعذراً على من يأخذ به.

(٤) «هل يحضر الخطيب إلى الجمعة قبل وقت دخوله؟!»:

قال بعض الشافعية: يستحب للخطيب ألا يحضر للجمعة إلا بعد دخول الوقت بحيث يشرع فيها أول وصوله المنبر؛ لأن هذا هو المنقول عن رسول الله ﷺ، وإذا وصله صعده ولا يصلي تحية المسجد، وتسقط هنا التحية بسبب الاشتغال بالخطبة. اهـ.

وقال الشيخ عبدالرحمن بن حسن: «وأما تقدم الخطيب في المسجد يصلي ويقرأ قبل الخطبة والصلاة فلا بأس به، لكن ينبغي أن يكون في ناحية يراه المأمومون إذا خرج إليهم للخطبة». اهـ.

(٥) «اتخاذ المنبر يوم العيد»:

قال ابن القيم رحمه الله عن المنبر في صلاة العيدين: «ولم يكن هنالك منبر يرقى عليه، ولم يكن يخرج منبر المدينة، وإنما كان يخطبهم قائماً على الأرض. قال جابر: شهدت مع رسول الله ﷺ الصلاة يوم العيد فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بلا أذان ولا إقامة، ثم قام متوكئاً على بلال. .» متفق عليه. اهـ.

قلت: في الصحيحين من حديث أبي سعيد في صفة صلاة العيدين وفيه: «فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم. . . قال أبوسعيد: فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان ـ وهو أمير المدينة ـ في أضحى أو فطر، فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن

الصلت...».

بوّب البخاري لهذا الحديث فقال: باب الخروج إلى المصلى بغير منبر.

قال الحافظ ابن حجر عن تبويب البخاري: يشير إلى ما ورد في بعض طرق حديث أبي سعيد الذي ساقه في هذا الباب، وهو ما أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجه من طريق الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه قال: «أخرج مروان المنبر يوم عيد، وبدأ بالخطبة قبل الصلاة، فقام إليه رجل فقال: يا مروان خالفت السنة...» الحديث. اهـ.

وذكر الحافظ أيضاً رواية ابن خزيمة: «خطب يوم عيد على رجليه» وهذا مشعر بأنه لم يكن بالمصلى في زمانه منبرٌ. ويدل على ذلك قول أبي سعيد: «فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان...».

وفي المدونة عن مالك قال: «أول من خطب الناس في المصلى على المنبر عثمان بن عفان، كلَّمهم على منبر من طين بناه كثير بن الصلت» قال عنه الحافظ ابن حجر: هذا معضلٌ، وما في الصحيحين أصح. ويُحتمل أن يكون عثمان فعل ذلك مرةً ثم تركه حتى أعاده مروان، ولم يطَّلع على ذلك أبوسعيد.

وذكر الحافظ أيضاً من فوائد حديث أبي سعيد: «وفيه أن الخطبة على الأرض عن قيام في المصلى أولى من القيام على المنبر، والفرق بينه وبين المسجد أن المصلى يكون بمكان فيه فضاء؛ فيتمكن من رؤيته كل من حضر بخلاف المسجد فإنه يكون في مكان محصور فقد لا يراه بعضهم».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الصحيحين أيضاً عن جابر: **«أن النبي ﷺ قام فبدأ بالصلاة ثم خطب الناس بعد، فلما فرغ نبي الله ﷺ نزل فأتى**

النساء فذكرهن. . . **الحديث**» وهو يدل على أنه كان يخطب على منبر، أو على راحلته، ولعلَّه كان قد بُني له منبر من لبنٍ أو طين أو نحوه!

قيل: لا ريب في صحة هذين الحديثين، ولا ريب أن المنبر لم يكن يخرج من المسجد، وأول من أخرجه مروان بن الحكم فأنكر عليه، وأما منبر اللبن والطين فأول مَنْ بناه كثير بن الصلت في إمارة مروان على المدينة كما هو في الصحيحين، فلعله ﷺ كان يقوم في المصلى على مكان مرتفع أو دكان وهي التي تسمَّى مصطبة ثم ينحدر منه إلى النساء. . .». اهـ.

(٦) «تنفل الإمام قبل العيدين أم بعدهما؟»:

بوَّب البخاري في صحيحه باباً فقال: باب الصلاة قبل العيد وبعدها. ثم قال: وقال أبوالمعلَّى: سمعت سعيداً عن ابن عباس كره الصلاة قبل العيد.

ثم أورد حديث سعيد عن ابن عباس «أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلى ركعتين لم يصل قبلها ولا بعدها ومعه بلال». ورواه مسلم أيضاً.

قلت: اختلف السلف في هذه المسألة على أقوال:

القول الأول: قال به الأوزاعي والثوري والحنفية: على أنه يُصلى بعدها لا قبلها، وقد ذكر ابن المنذر عن أحمد أن هذا فعل الكوفيين.

القول الثاني: قال به الحسن البصري وجماعة: على أنه يُصلى قبلها لا بعدها. وذكر الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا عمل البصريين. وقد أسند البيهقي عن جماعة منهم أنس: أنهم كانوا يصلون يوم العيد قبل خروج الإمام». وسكت عليه الحافظ في التلخيص.

القول الثالث: قال به الزهري وابن جريج وأحمد وجماعة من المحققين، ونقله الإمام أحمد عن المدنيين: على أنه لا يُصلى قبلها ولا

بعدها. وعن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه منعه في المصلى، وعنه في المسجد روايتان.

ونقل بعض المالكية الإجماع على أن الإمام لا يتنفل في المصلى، وقال ابن العربي: التنفل في المصلى لو فُعل لنُقل.

القول الرابع: قال به الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أنه يجب على الإمام ألا يتنفل قبلها ولا بعدها، وأما المأموم فمخالف له في ذلك. ووافقه على ذلك الرافعي والشافعية، وقيّده البويطي بالمصلى.

قال النووي في شرح مسلم: قال الشافعي وجماعة من السلف: لا كراهة في الصلاة قبلها ولا بعدها. فتعقبه الحافظ ابن حجر وقال: فإن حُمل كلامه على المأموم وإلا فهو مخالف لنص الشافعي المذكور.

قلت: هذا حاصل الخلاف في هذه المسألة. وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم يكن هو - يعني النبي - ولا أصحابه يصلون إذا انتهوا إلى المصلى شيئاً قبل الصلاة ولا بعدها.

وبهذا يتضح لك أيها القارئ أن النبي ﷺ لم يكن يصلي شيئاً قبلها ولا بعدها إذا كان في المصلى. وأما إذا كان في المسجد فلعل الأظهر أنه لا بأس أن يصلي ركعتي التحية ولا يتنفل، وأما بعدها فلا. ثم إذا كان قد صلى في المصلى أو في المسجد فإنه قد ورد عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد: «أن النبي ﷺ كان لا يصلي قبل العيد شيئاً، فإذا رجع إلى منزله صلى ركعتين» أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن وصححه الحاكم كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح. وذكر في التلخيص ما أخرجه البزار من حديث الوليد بن سريع عن علي في قصة له: أن النبي ﷺ لم يصل قبلها ولا بعدها، فمن شاء فعل ومن شاء ترك» فسكت عنه الحافظ وقال: ويُجمع بين هذا وبين حديث أبي سعيد أن النفي إنما وقع في الصلاة في

المصلى. اهـ.

قال ابن العربي: التنفل في المصلى لو فُعل لنُقِل، ومَنْ أجازه رأى أنه وقت مطلق للصلاة، ومَنْ تركه رأى أن النبي ﷺ لم يفعله، ومَنْ اقتدى فقد اهتدى. اهـ.

قال الحافظ ابن حجر: والحاصل أن صلاة العيد لم يثبت لها سنة قبلها ولا بعدها خلافاً لمن قاسها على الجمعة. اهـ. والله تعالى أعلم.

(٧) «التكبير في خطبتي العيدين»:

قال ابن قدامة في المغني: ويستحب أن يكثر التكبير في أضعاف خطبته. فإذا كبَّر في أثناء الخطبة كبَّر الناس بتكبيره.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكان التكبير أيضاً مشروعاً في خطبة العيد زيادة على الخطب الجمعية.

أما الدليل على ما ذكر فهو ما روى ابن ماجه في سننه عن سعد القرظ مؤذن النبي ﷺ أنه كان يكبر بين أضعاف الخطبة، ويكثر التكبير في خطبتي العيدين. وفي سنده عبدالرحمن بن سعد بن عمار بن سعد المؤذن وهو ضعيف، وسعد بن عمار مجهول.

وأورد ابن قدامة ما رُوي عن أبي موسى أنه كان يكبِّر يوم العيد على المنبر اثنتين وأربعين تكبيرة.

قلت: الذي يظهر أن العمل على استحباب التكبير أثناء الخطبة، وقد قال بهذا جماهير أهل العلم. والعلم عند الله تعالى.

تنبيـــه:

هل يستحب افتتاح خطبة العيدين بالتكبير أو لا؟ تقدم بحث ذلك في الحلقة الأولى من (**بين يدي الخطيب**) فراجعه إن شئت.

(٨) «الخطبة بغير العربية أو ترجمتها لغير العربية»:

لم يثبت عن النبي ﷺ ما يدل على أنه يشترط في خطبة الجمعة أن تكون باللغة العربية، كما أنه لم يأت ما يدل على أن النبي ﷺ أو أحد من الصحابة أو القرون المفضَّلة قد خطب الجمعة بغير العربية مع وجود الأعاجم وانتشارهم في بلاد المسلمين بعد الفتوحات الإسلامية. وإنما كان ﷺ هو وأصحابه ومَنْ بعدهم يخطبون باللغة العربية؛ لأنها لغتهم ولغة قومهم، ومن ثَمَّ فقد تنازع العلماء في جواز الخطبة بغير العربية أو ترجمتها.

قال سماحة شيخنا العلامة عبدالعزيز بن باز ما حاصله:

١ ـ **فمنع من ذلك بعض أهل العلم سدًّا للذريعة ومحافظة على اللغة العربية، ولأن النبي ﷺ كان يفعل ذلك.** وفعله ﷺ مفسر لما هو واجب، وهو الأمر بإقامة الجمعة والسعي إليها والاستماع إلى ذكر الله، وما فسَّر الواجب فهو واجب. وعلى هذا سار الأسلاف، حتى إنهم كانوا يلقونها بالعربية في بلاد العجم وغيرها، وحثًّا للناس على تعلم اللغة العربية التي هي لغة القرآن.

٢ ـ **وذهب آخرون من أهل العلم إلى جواز ذلك إذا كان المخاطَبون أو أكثرهم لا يعرفون اللغة العربية**، نظراً للمعنى الذي من أجله شرع الله الخطبة، وهو إبلاغ الناس حتى يفهموا ما شرعه الله لهم وما نهاهم عنه. بناءً على أن القصد هو مراعاة المعاني والمقاصد، الذي هو أولى من مراعاة الألفاظ والرسوم؛ لأن المنع من ذلك والناس لا يفهمون يذهب المقصود الذي شُرعت من أجله الخطبة وهو التذكير والبلاغ.

ولعلَّ الأظهر والأقرب ـ والعلم عند الله تعالى ـ أن يُفصَّل في

المسألة فيقال: إن كان معظم مَنْ في المسجد من الأعاجم الذين لا يفهمون اللغة العربية فلا بأس من إلقائها بغير العربية أو إلقائها بالعربية ومن ثمَّ ترجمتها.

وأما إن كان الغالب على الحضور هم ممن يفهمون اللغة العربية ويدركون معانيها في الجملة، فالأولى والأظهر الإبقاء على اللغة العربية وعدم مخالفة هدي النبي ﷺ، لاسيما وقد كان السلف يخطبون في مساجد يُوجد بها أعاجم، ولم يُنقل أنهم كانوا يترجمون ذلك؛ لأن العزة كانت للإسلام والكثرة والسيادة للغة العربية.

وأما ما يدل على الجواز عند الحاجة فإن لذلك أصلاً في الشريعة وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾. ومن ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم لمَّا غزوا بلاد العجم من فارس والروم لم يقاتلوهم حتى دعوهم إلى الإسلام بواسطة المترجمين. وهذا الذي اختاره سماحة شيخنا العلامة **عبدالعزيز بن باز** واللجنة الدائمة للإفتاء، واختاره شيخنا الشيخ محمد بن عثيمين كما في شرحه على الزاد.

قال سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: «لابد من إلقاء الخطبة باللغة العربية، وإذا كان جميع الذين يحضرون الخطبة لا يفهمون خطبة الجمعة لجهلهم اللغة العربية فينبغي للخطيب أن يشرح لهم معانيها باللغة المحلية بعد الفراغ من إلقائها لتحصل لهم الفائدة المقصودة من الخطبة» اهـ. فالشيخ رحمه الله يرى أن الخطبة لا تصح إلا باللغة العربية. ولا مانع من ترجمتها بعد انقضائها كما ترى.

وقال شيخنا العلامة محمد بن عثيمين في شرحه على زاد المستقنع: «إن كان يخطب في عرب فلابد أن تكون بالعربية، وإن كان يخطب في

غير العرب قال بعض العلماء: لابد أن يخطب أولاً بالعربية، ثم يخطب بلغة القوم الذين عنده.

وقال آخرون: لا يُشترط أن تكون بالعربية بل يجب أن يخطب بلغة القوم الذين يخطب فيهم، وهذا هو الصحيح لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾.

وفي قرار مجلس المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي ما يلي: الرأي الأعدل: هو أن اللغة العربية في أداء خطبة الجمعة والعيدين، في غير البلاد الناطقة بها، ليست شرطاً لصحتها، ولكن الأحسن أداء مقدمات الخطبة وما تضمنته من آيات قرآنية باللغة العربية؛ لتعويد غير العرب على سماع العربية والقرآن، مما يسهل تعلمها، وقراءة القرآن باللغة التي نزل بها، ثم يتابع الخطيب ما يعظهم به بلغتهم التي يفهمونها. اهـ.

هذا حاصل ما وقفت عليه في هذه المسألة.

يبقى سؤال وهو: متى تكون الترجمة إذا احتيج إليها؟

فالجواب أن يُقال: تكون إما قبل الخطبة أو بعد الصلاة مطلقاً بلا إشكال.

وهل تكون أثناء الخطبة أو بين الخطبتين أو بعد الخطبة وقبل الصلاة؟

فالجواب: أن من أهل العلم من أجاز ذلك كله رعاية للمقصود والنفع العام.

والذي يظهر لي ـ والله تعالى أعلم ـ أن تكون كما سبق ذكره قبل الخطبة مطلقاً أو بعدها مطلقاً؛ لأن المقصود الإفهام، وهو يحصل بما ذكرت، ولأن في الترجمة أثناء الخطبة أو بين الخطبتين أو بعدها وقبل

الصلاة إطالة وتشويشاً ونقصاً في الموالاة.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ: والموالاة شرط في صحة الخطبة. فإن فصل بعضها من بعض بكلامٍ طويل أو سكوت طويل أو شيء غير ذلك يقطع الموالاة استأنفها، والمَرجع من طول الفصل وقصره إلى العادة. وكذلك يُشترط الموالاة بين الخطبة والصلاة. اهـ.

قلت: ولعل الفاصل اليسير الذي لا يخلُّ بالموالاة للحاجة لا يقطع ذلك. فقد أخرج أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أنس قال: «رأيت النبي ﷺ ينزل من المنبر، فيعرض له الرجل في الحاجة فيقوم معه حتى يقضي حاجته ثم يقوم فيصلي».

هذا حاصل زبدة هذه المسألة، والعلم عند الله تعالى.

(٩) «نزول الخطيب من المنبر عند الحاجة إلى ذلك»:

هذه المسألة تنبني على الخلاف فيما يتعلق بالموالاة في الخطبة وعدم قطعها بفاصل يطول. ولا شك أن نزول الخطيب من المنبر ثم العودة إليه يُعد من الفاصل، ولكن هل يُبطل الموالاة؟

على قول مَنْ يشترط الموالاة فإنه إن طال الفاصل بطلت، وعليه أن يعيد، وإن لم يطل الفاصل لم تبطل.

وقد أخرج الترمذي وأبوداود والنسائي وابن ماجه من حديث بريدة عن أبيه قال: «خطبنا النبي ﷺ فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزلٍ فأخذهما فصعد بهما ثم قال: «صدق الله» ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ **رأيت هذين فلم أصبر**» ثم أخذ في خطبته».

ففي هذا الحديث دليل على جواز النزول للخطيب إذا احتاج لذلك. وظاهره أنه لم يطل الفصل. والعلم عند الله تعالى.

(١٠) «إذا خطب الخطيب جالساً»:

اختلف أهل العلم في اشتراط القيام حال الخطبة:

فذهب أبوحنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنهما أن القيام ليس شرطاً في صحة الخطبة؛ لأنه ذكر ليس من شرطه الاستقبال، فلم يجب له القيام كالأذان، فإن تركه صحت الخطبة، واستدل بعضهم لهذا القول بما أخرجه البخاري وغيره من حديث أبي سعيد «أن النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله. . .»، وبما أخرجه البخاري وغيره أيضاً من حديث سهل وفيه: «**مُري غلامك يعمل لي أعواداً أجلس عليها**».

وأجيب عن الدليل الأول: أنه كان في غير خطبة الجمعة. **وعن الدليل الثاني**: باحتمال أن تكون الإشارة إلى الجلوس أول ما يصعد وبين الخطبتين.

وذهب مالك في إحدى الروايتين والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين إلى اشتراط القيام حال الخطبة.

واحتج هؤلاء بما رواه مسلم وغيره عن جابر بن سمرة قال: «إن رسول الله ﷺ كان يخطب قائماً، ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب قائماً فمن نبّأك أنه كان يخطب جالساً فقد كذب، فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة».

قال النووي: المراد الصلوات الخمس لا الجمعة. اهـ.

وقال الشوكاني: ولابد من هذا؛ لأن الجمع التي صلاها ﷺ من عند افتراض صلاة الجمعة إلى عند موته لا تبلغ ذلك المقدار ولا نصفه.

وبما رواه البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يخطب قائماً ثم يقعد، ثم يقوم كما تفعلون الآن».

فائدة:

قال الحافظ ابن حجر: أخرج ابن أبي شيبة عن طاوس «خطب رسول الله قائماً وأبوبكر وعمر وعثمان، وأول من جلس على المنبر معاوية، وأنه إنما خطب قاعداً لما كثر شحم بطنه ولحمه». وهذا مرسل يعضده ما روى سعيد بن منصور عن الحسن قال: «أول من استراح في الخطبة يوم الجمعة عثمان، وكان إذا أعيي جلس ولم يتكلم حتى يقوم، وأول من خطب جالساً معاوية».

وروى عبدالرزاق عن معمر عن قتادة «أن النبي ﷺ وأبابكر وعمر وعثمان كانوا يخطبون يوم الجمعة قياماً، حتى شقَّ على عثمان القيام، فكان يخطب قائماً ثم يجلس، فلمَّا كان معاوية خطب الأولى جالساً والأخرى قائماً» ولا حجة في ذلك لمن أجاز الخطبة قاعداً؛ لأنه تبين أن ذلك للضرورة. اهـ. والعلم عند الله تعالى.

(١١) «الجلوس بين الخطبتين»:

روى الشيخان عن ابن عمر قال: «كان النبي ﷺ يخطب خطبتين يقعد بينهما». وقد تقدم من حديث جابر بن سمرة عند مسلم.

وقد اختلف أهل العلم في حكم هذه الجلسة، فذهب الجمهور منهم إلى عدم وجوبها وأنها مستحبة؛ لأنها جلسة ليس فيها ذِكرٌ مشروع؛ فلم تكن واجبة كالأولى.

قال ابن عبدالبر: ذهب مالك والعراقيون وسائر فقهاء الأمصار إلا الشافعي إلى أن الجلوس بين الخطبتين لا شيء على من تركه.

وذهب الشافعي وحكي أنه رواية عن مالك إلى وجوب الجلستين، ونصر هذا القول النووي في المجموع واستدلَّ بقوله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي» مع الأحاديث المشهورة أنه ﷺ كان يخطب خطبتين

قائماً يجلس بينهما.

فائدتان:

الأولى: اختُلف في الحكمة من هذه الجلسة بين الخطبتين:

قال الحافظ ابن حجر: قيل: للفصل بين الخطبتين، وقيل: للراحة. وعلى الأول وهو الأظهر يكفي السكوت بقدرها. ويظهر أثر الخلاف فيمن خطب قاعداً لعجزه عن القيام. وقد ألزم الطحاوي من قال بوجوب الجلوس بين الخطبتين أن يوجب القيام في الخطبتين؛ لأن كلاً منهما اقتصر على فعل شيء واحد. اهـ.

الثانية: ينبني على الخلاف في هذه المسألة هل المشروع خطبتان أم خطبة واحدة؟

فذهب الشافعي إلى اشتراط الخطبتين للأدلة الماضية.

وذهب الجمهور إلى استحباب ذلك، وأن الخطبة الواحدة مجزأة.

(١٢) «ترديد الخطيب وهو على المنبر خلف المؤذن»:

أخرج الشيخان عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان وهو جالس على المنبر أذن المؤذن قال: الله أكبر الله أكبر، قال معاوية: الله أكبر الله أكبر قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فقال معاوية: وأنا. فلما أن قضى التأذين قال: يا أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ على هذا المجلس ـ حين أذَّن المؤذن ـ يقول ما سمعتم مني من مقالتي».

قلت: هذا الحديث فيه فوائد:

الأولى: أن البخاري بوَّب له في صحيحه فقال: يجيب الإمام على المنبر إذا سمع النداء.

الثانية: تعلم العلم وتعليمه من الإمام وهو على المنبر.

الثالثة: أن الخطيب يجيب المؤذن وهو على المنبر.

الرابعة: أن ترديد الخطيب يكون بصوت يُسمع مَنْ حوله كما هو نص الحديث.

(١٣) «الصلاة على النبي ﷺ على المنبر أو الأمر بها»:

اشترط بعض أهل العلم الصلاة على النبي ﷺ في الخطبة، وعَدُّوها من أركان الخطبة، وقالوا: يتعين لفظ الصلاة.

قال ابن قدامة: ويحتمل أن لا تجب الصلاة على النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ لم يذكر في خطبته ذلك. وقد سبق معنا ذكر الصحيح في اشتراط هذه الأركان للصلاة في الحلقة الأولى من «بين يدي الخطيب».

فائــــدة:

جرت عادة كثير من الخطباء أن يختموا الخطبة بالصلاة على النبي ﷺ أو الأمر بذلك، وهذا لا دليل عليه في هذا الموضع، والأولى ألا يقتصر على موضع واحد إن كان، فتارة يصلي عليه في أولها، وأخرى في أوسطها، ولا يلتزم موضعاً واحداً يوهم أن ذلك هو السنة. وهل يأمر المصلين بذلك؟

الجواب: لا دليل على الأمر بها، ولا مانع من ذلك أحياناً للتذكير بفضلها لاسيما في يوم الجمعة؛ لأن الخطبة للموعظة والتذكير والإرشاد، وأما الديمومة فلا دليل عليها. ولكن عمل الناس من قديم الزمن على ذلك، ولا أعلم مستنداً لهذا، غير أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أشار إلى مثل هذا فلم ينكره حيث قال: «وذلك أن الله تعالى أمر في كتابه بالصلاة والسلام عليه مخصوصاً بذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ فهنا أخبر وأمر، وأما في حق عموم المؤمنين فأخبر ولم يأمر فقال تعالى: ﴿هُوَ

﴿ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ ولهذا إذا ذكر الخطباء ذلك قالوا: إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته، وأيَّه بالمؤمنين من بريته، أي قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ اهـ.

قلت: والصلاة عليه في الخطب أوجبها الشافعي، ولم يوجبها أبوحنيفة ومالك، وعن الإمام أحمد روايتان. والعلم عند الله تعالى.

(١٤) «الحديث بعد الجمعة»:

هذه مسألة تتكرر في كثير من الجوامع حيث يقوم الإمام أو بعض الحريصين فيحدثون الناس بعد الجمعة.

نقل ابن قدامة عن الإمام أحمد أنه قال: إذا كانوا يقرءون الكتاب يوم الجمعة على الناس بعد الصلاة، أعجب إليَّ أن يسمع إذا كان فتحاً من فتوح المسلمين، أو كان فيه شيء من أمور المسلمين فليستمع، وإن كان شيئاً إنما فيه ذكرهم فلا يستمع. اهـ.

(١٥) «إذا أُغلق على الخطيب»:

قد يتلعثم الخطيب أو يُغلق عليه في خطبته كما يُغلق عليه في صلاته. وقد قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإذا حُصر الإمام لُقن.

قلت: وهو قول جمهور أهل العلم في الفتح على الإمام في الصلاة وتلقينه، ولا شك أن الخطبة أقل شأناً من الصلاة. ويدل على جواز تلقين الإمام ما رواه أبوداود وغيره من حديث المسور بن يزيد الأسدي رضي الله عنه قال: شهدت رسول الله ﷺ يقرأ في الصلاة فترك شيئاً لم يقرأه فقال له رجل: يا رسول الله، تركت آية كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ: **«هلا أذكرتنيها»**. قال: كنت أراها نُسخت.

ولأبي داود أيضاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صلى صلاة فقرأ فيها فلُبِّس عليه، فلما انصرف قال لأُبي رضي الله عنه:

«**أصليت معنا**» قال: نعم. قال: «**فما منعك؟**».

وقد يشكل على هذين الحديثين ما رواه أبوداود أيضاً من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا علي، لا تفتح على الإمام في الصلاة**».

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: إسناد حديث أُبي رضي الله عنه جيد، وحديث علي رضي الله عنه من رواية الحارث وفيه مقالٌ.

(١٦) «كيفية صعود الخطيب المنبر ونزوله»:

استحب جماعة منهم ابن عقيل وغيره أن يكون الخطيب حال صعوده على تؤدة، وإذا نزل يكون مسرعاً مبالغةً في الموالاة بين الخطبتين والصلاة. وأما ما يفعل حال الصعود من بعض عوام الخطباء من التباطؤ ـ يعني خلاف التؤدة ـ حين صعود المنبر فقد عدَّه بعضهم من البدع كما ذكر ذلك أبوشامة في الباعث، وذكره القاسمي في إصلاح المساجد وغيرهما.

ومثل ذلك دق الخطيب المنبر عند صعوده ثلاث مرات بعصى أو نحوها دقًّا مزعجاً أو مرتفعاً كما ذكر ذلك في الباعث وروضة الطالبين للنووي وإصلاح المساجد وغيرها.

وأما وقت نزول الخطيب فقد قال بعض أهل العلم من الحنابلة: ينزل بعد فراغه من الخطبة عند قول المؤذن: قد قامت الصلاة، كما يقوم إليها من ليس بخطيب إذن.

وفي وجه: ينزل عند فراغه من الخطبة بحيث يصل إلى المحراب عند قولها.

وقال الشافعية: ويستحب له أن يأخذ في النزول من المنبر عقب فراغه، ويأخذ المؤذن في الإقامة، ويبلغ المحراب مع فراغ الإقامة.

قلت: لا أعلم دليلاً يدل على ما ذكره أهل العلم في هذه المسألة بل

ثبت ما يدل على خلافه، ولعلَّ الأمر في ذلك واسع. وإن نزل بعد فراغه من الخطبة فهو أولى لعدم الحاجة إلى بقائه على المنبر، ولموافقة هدي النبي ﷺ في نزوله من المنبر قبل الإقامة كما دلَّ عليه ما رواه أحمد والنسائي: «كان بلال يؤذن إذا جلس النبي ﷺ على المنبر ويقيم إذا نزل»، فدلَّ على أن بداية النزول قبل الإقامة، والعلم عند الله تعالى.

(١٧) «التشريك بين ضمير الله ورسوله في الخطبة»:

المراد بالتشريك هنا كأن يقول الخطيب عن الله ورسوله: «ومن يعصهما»، أو «ومن يطعهما»، أو «ومن يُغضبهما» وهكذا.

وقد ورد عن النبي ﷺ ما يدل على وقوع ذلك في خطبته ﷺ، فقد روى أبوداود من حديث ابن مسعود «أن النبي ﷺ كان إذا تشهد. . .» الحديث. وفيه «**من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله تعالى**». صحح إسناد هذا الحديث النووي في شرح مسلم، وأخذ منه بعض أهل العلم جواز التشريك بين ضمير الله تعالى ورسوله ﷺ أثناء الخطبة ومطلقاً أيضاً. ويؤيد ذلك ما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال في حديث: «. . . **أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**». وما ثبت عنه في تحريم لحوم الحمر الأهلية، حيث أمر منادياً ينادي: «**إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية**».

وقد أشكل هذا الأمر على بعض أهل العلم حيث أوردوا عليه ما جاء عند مسلم وأبي داود والنسائي من حديث عدي بن حاتم أن خطيباً خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال له ﷺ: «**بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى**».

لكن حمل النووي هذا على أن سبب الإنكار عليه: أن الخطبة شأنها

البسط والإيضاح واجتناب الإشارات والرموز..، قال: وإنما ثنى الضمير في مثل قوله: «**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»؛ لأنه ليس خطبة وعظ وإنما هو تعليم حكم، فكل ما قلَّ لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف خطبة الوعظ فإنه ليس المراد حفظها، وإنما يراد الاتعاظ بها. وأجيب عن قوله بأنه قد وقع الجمع بين الضميرين منه ﷺ في الخطبة لا في تعليم الأحكام.

وقال القاضي عياض وجماعة من العلماء: إن النبي ﷺ إنما أنكر على الخطيب تشريكه في الضمير المقتضي للتسوية وأمره بالعطف تعظيماً لله تعالى بتقديم اسمه كما قال ﷺ في الحديث الآخر: «**لا يقل أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل: ما شاء الله ثم شاء فلان**». وأجيب عن هذا بأن النبي ﷺ شرك بين الضميرين كما سبق.

قال بعض أهل العلم: يمكن أن يقال إن النبي ﷺ إنما أنكر على ذلك الخطيب التشريك؛ لأنه فهم منه اعتقاد التسوية، فنبَّهه على خلاف معتقده وأمره بتقديم اسم الله تعالى على اسم رسوله ﷺ؛ ليعلم بذلك فساد ما اعتقده.

هذا حاصل قول أهل العلم في هذه المسألة، والعلم عند الله تعالى.

(١٨) «كلام الخطيب أثناء خطبته لأجل النصح أو للمصلحة»:

لا بأس للخطيب أن يخرج عن خطبته بكلام يحتاج إليه في نصحٍ أو إنكار منكر أو نحو ذلك، ويدل على هذا ما رواه الشيخان من حديث جابر رضي الله عنه قال: جاء رجل والنبي ﷺ يخطب الناس فقال: «**صليت يا فلان؟**» قال: لا، قال: «**قم فاركع**». وفي رواية: «**فصل ركعتين**».

ويدل عليه **أيضاً** ما رواه الترمذي وأبوداود والنسائي وابن ماجه من حديث بريدة في قصة نزوله ﷺ من المنبر لما رأى الحسن والحسين وفيه:

«ثم قال: صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ رأيت هذين فلم أصبر»، ثم أخذ في خطبته. . . ».

ويدل على ذلك أيضاً ما رواه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن عمر بينا هو يخطب يوم الجمعة، إذ دخل رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فناداه عمر: أية ساعة هذه؟ قال: إني شغلت اليوم، فلم أنقلب إلى أهلي حتى سمعت النداء، فلم أزد على أن توضأت. قال عمر: الوضوءَ أيضاً؟ وقد علمت أن رسول الله ﷺ كان يأمر بالغسل».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن وصف خطب النبي ﷺ: «ويأمرهم وينهاهم في خطبه إذا عرض له أمر أو نهي كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين، ونهى المتخطي رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس، وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض أو السؤال من أحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها». اهـ.

(١٩) فائدة: «حول مكبر الصوت للخطيب»:

إيراد هذه المسألة للفائدة، إذ ليست هي من المسائل المهمة، فالسواد الأعظم لم تشكل عليهم، ولكن أوردها للفائدة؛ لأنها مما قيل فيما يخص الخطيب، ولأمر آخر وهو أنه لا يخلو هذا الزمان ممن يجادل في مكبر الصوت ومدى مشروعيته وهم قلة لا تُذْكر.

ففي قرارات المجمع الفقهي برابطة العالم الإسلامي:

أما استخدام مكبر الصوت في أداء خطبة الجمعة والعيدين، وكذا القراءة في الصلاة وتكبيرات الانتقال، فينبغي استعماله في المساجد الكبيرة، لما يترتب عليه من المصالح الشرعية. والله الموفق. اهـ.

وسُئل الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأيكم في استعمال مكبر الصوت للخطيب؟

فأجاب: رأينا أنه لا بأس به، وهنا فائدة نافعة لهذه المسألة وغيرها، وهي أن الأمور الحادثة بعد النبي ﷺ قسمان: عبادات وعادات.

أما العبادات: فكل من أحدث عبادة لم يشرعها الله ورسوله فهو مبتدع.

وأما العادات: فالأصل فيها الإباحة، فكل من حرَّم عادة من العوائد الحادثة فعليه الدليل، فإن أتى بدليل يدل على المنع والتحريم من كتاب الله، أو سنة رسول الله، أو قياس على أصل شرعي، فهو محذور وممنوع، وإلا فالأصل الإباحة، وقد ذكر شيخ الإسلام هذين الأصلين في «اقتضاء الصراط المستقيم» وغيره من كتبه.

فهذه الآلات الحادثة من هذا الباب، الأصل فيها الإباحة، والمباحات كلها إن أعانت على خير فهي حسنة، وإن أعانت على شر فهي سيئة. والله أعلم. اهـ.

(٢٠) «الدعاء حال الخطبة»:

هذه المسألة تشتمل على أمرين: الأول منهما: الدعاء في الخطبة مطلقاً وحكمه. والأمر الثاني: إن كان مشروعاً فهل هو مختص بعموم المسلمين، أو يجوز أن يشرك فيه السلطان وولي الأمر؟

أما الدعاء في الخطبة من حيث الأصل:

فقد قال في المغني: ويستحب أن يدعو للمؤمنين والمؤمنات ولنفسه والحاضرين.

قال في الإنصاف: بلا نزاع. وأشار بعض أهل العلم أنه باتفاق الأربعة؛ لأن الدعاء لهم مسنون في غير الخطبة ففيها أولى، وقال الرملي في كتابه «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج للنووي»: يسن الدعاء للمؤمنين بأخروي لا دنيوي؛ لاتباع السلف والخلف؛ ولأن الدعاء يليق

بالخواتيم.

قال شيخنا العلامة الشيخ محمد بن عثيمين في شرحه على الزاد: «ينبغي أيضاً في الخطبة أن يدعو للمسلمين الرعية والرعاة. . . إلخ»، ثم قال: «لكن قد يقول قائل: كون هذه الساعة مما ترجى فيها الإجابة، وكون الدعاء للمسلمين فيه مصلحة عظيمة موجودة في عهد النبي ﷺ، وما وجد سببه في عهد النبي ﷺ ولم يفعله فتركه هو السنة، إذ لو كان شرعاً لفعله النبي ﷺ، فلابدَّ من دليل خاص يدل على أن النبي ﷺ كان يدعو للمسلمين، فإن لم يوجد دليل خاص فإننا لا نأخذ به ولا نقول إنه من سنن الخطبة، وغاية ما نقول: إنه من الجائز، لكن قد روي أن النبي ﷺ «كان يستغفر للمؤمنين والمؤمنات في كل جمعة» فإن صحَّ هذا الحديث فهو أصل في الموضوع، وحينئذٍ لنا أن نقول: إن الدعاء سُنَّة، أما إذا لم يصح فنقول: إن الدعاء جائز، وحينئذٍ لا يُتخذ سنة راتبة يواظب عليه؛ لأنه إذا اتخذ سنة راتبة يواظب عليه فهم الناس أنه سنة، وكل شيء يوجب أن يفهم الناس منه خلاف حقيقة الواقع فإنه ينبغي تجنبه» اهـ.

قلت: الحديث الذي ذكره شيخنا أخرجه البزار عن سمرة بن جندب رضي الله عنه. ضعَّفه الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام: رواه البزار بإسناد فيه لين. اهـ.

أما الدعاء للسلطان أو ولاة أمور المسلمين فهذا لا يخلو من حيث القسمة من حالين:

الحال الأولى: أن يُدعى له مطلقاً دون تقييد بخطبة أو نحوها.

وأما الحال الثانية: فهي أن يدعى له حال الخطبة.

فأما الحال الأولى: فإن من اعتقاد أهل السنة والجماعة: طاعة ولاة الأمر بالمعروف، وأن ذلك فريضة ما لم يأمروا بمعصية، والدعاء لهم

بالصلاح والتوفيق للخير والسداد.

يقول الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في متنه في الاعتقاد عن الأئمة والولاة: ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية. وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة. . . إلخ. اهـ.

قال بعض أهل العلم: وأما الدعاء مطلقاً لولي أمر المسلمين منهم فهو من سنن الهدى.

ومن ذلك ما ثبت عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: «لو أن لنا دعوة مستجابة ما صيرناها إلا للإمام». ونسب بعض أهل العلم ذلك للإمام أحمد أيضاً كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره.

وفي كتاب «السنة» للخلال بسنده عن الإمام أحمد: «وإني لأدعو له ـ الإمام ـ بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار والتأييد وأرى ذلك واجباً عليَّ». اهـ.

وقد ذكر أبوعبدالله الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الخليفة المتوكل رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: إني لأدعو له بالصلاح والعافية. اهـ.

وقد ثبت عنه أيضاً أنه دعا للمتوكل وقال: (أيَّده الله)، ثم قال: (وإني أسأل الله أن يديم توفيق أمير المؤمنين أعزَّه الله بتأييده. ثم قال: فأسأل الله أن يستجيب في أمير المؤمنين صالح الدعاء، وأن يتم ذلك لأمير المؤمنين أدام الله عزَّه، وأن يزيد في نيته ويعينه على ما هو عليه. اهـ.

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته «الجواب الباهر في زوار المقابر» التي وجهها إلى السطان، فكان مما قال فيها: «إني لما علمت مقصود ولي الأمر السلطان ـ أيَّده الله وسدده فيما رسم به. . . إلخ. ثم قال أيضاً: «فأنا أعلم أن الحق ظاهر مثل الشمس يعرفه أقل

غلمان السلطان الذي ما رئي في هذه الأزمان سلطان مثله ـ زاده الله علماً وتسديداً وتأييداً. . . ». اهـ.

قلت: ومن تتبع كلام أهل السنة والجماعة علم أن الدعاء مطلقاً لولاة الأمر بالصلاح والهداية أمر مبذول ومطروق؛ لأن الدعوة بالصلاح للسلطان متعدية المصلحة بحيث إنه إذا صلح صلح بصلاحه العباد والبلاد، ومما يستأنس به فيما يتعلق بالدعاء لولاة الأمر ما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**» الحديث. [رواه مسلم].

والمقصود بالصلاة هنا: «الدعاء» على أحد التفاسير.

هذا حاصل ما يخص الدعاء للسلطان مطلقاً دون تقييد.

أما الحالة الثانية وهي الدعاء للسلطان أثناء الخطبة، فللعلماء في ذلك أقوال أسرد منها ما وقفت عليه على قولين:

القول الأول: وهم الذين منعوا من الدعاء للسلطان أثناء الخطبة وقالوا: إن هذا محدث لا أصل له، مع عدم ممانعتهم للدعاء له في غير الخطبة.

ومن قال بذلك عطاء، كما روى الشافعي في الأم بسنده عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ما الذي أرى الناس يدعون به في الخطبة يومئذٍ أبلغك عن النبي ﷺ أم عن من بعد النبي ﷺ؟ قال: لا، إنما أحدث، إنما كانت الخطبة تذكيراً.

قال النووي عن رواية الشافعي هذه: إسنادها صحيح إلا عبدالمجيد فوثَّقه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وضعَّفه أبوحاتم الرازي والدارقطني. اهـ.

قال الشافعي في «الأم»: «فإن دعا لأحدٍ بعينه أو على أحدٍ كرهته ولم تكن عليه عيادة».

وقال البيهقي في «السنن الكبرى»: (باب ما يُكره من الدعاء لأحد بعينه أو على أحد بعينه في الخطبة)، ثم أورد أثر عطاء، ثم أسند عن ابن عون قال: نبئت أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه كتب ألا يسمى أحد في الدعاء، واستدلَّ القاضي أبويعلى على أنه لا يستحب بأثر عطاء السابق.

وقد ذكر الشاطبي في كتابه «الاعتصام» عن العز بن عبدالسلام: «أن الدعاء للخلفاء في الخطبة بدعة غير محبوبة... لم يكن عليه مَنْ تقدَّم.. إلخ» اهـ.

قال الشيرازي صاحب «المهذب»: «وأما الدعاء للسلطان فلا يُستحب ـ يعني في الجمعة ـ لما روي أنه سُئل عطاء عن ذلك فقال: إنه محدث، وإنما كانت الخطبة تذكيراً». اهـ.

قال صاحب «الدر المختار» الحنفي: «ويندب ذكر الخلفاء الراشدين والعمين ـ يعني حمزة والعباس ـ لا الدعاء للسلطان، وجوَّزه القهستاني، ويُكره تحريماً وصفه بما ليس فيه». اهـ.

وقال في «البحر الرائق» للحنفية: «إنه لا يستحب، واستدل بقول عطاء...» اهـ.

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: «وقد استثني من الإنصات في الخطبة ما إذا انتهى الخطيب إلى كلام لم يشرع في الخطبة مثل: الدعاء للسلطان مثلاً، بل جزم صاحب «التهذيب» بأن الدعاء للسلطان مكروه. اهـ.

واستثنى الحافظ ابن حجر ما إذا خشي الخطيب على نفسه، فيُباح

له، وأما إذا لم يخف الضرر فلا.

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن السلطان يُدعى له أثناء الخطبة، وإليك عبارات بعضهم في هذا:

قال ابن قدامة: وإن دعا لسلطان المسلمين بالصلاح فحسن. واستدلَّ بدعاء أبي موسى الأشعري لأبي بكر وعمر أثناء الخطبة.

قلت: ولم أقف على سند هذه الرواية حسب البحث.

قال ابن قدامة: ولأن سلطان المسلمين إذا صلح كان فيه صلاح لهم، ففي الدعاء له دعاء لهم، وذلك مستحب غير مكروه.

وجوَّز الدعاء له في الخطبة القهستاني من الحنفية وتبعه ابن عابدين في حاشيته، فقال هذا الكلام بتمامه: «ثم يدعو لسلطان الزمان بالعدل والإحسان، متجنباً في مدحه عما قالوا إنه كفر وخسران، كما في الترغيب وغيره.

وقال أيضاً: بل لا مانع من استحبابه فيها كما يدعى لعموم المسلمين، فإن في صلاحه صلاح العالم. وما في البحر من أنه محدث لا ينافيه، فإن سلطان هذا الزمان أحوج إلى الدعاء له ولأمرائه بالصلاح والنصر على الأعداء.

وقال أيضاً: فإن الدعاء للسلطان على المنابر قد صار الآن من شعار السلطنة، فمن تركه يُخشى عليه، ولذا قال بعض العلماء: لو قيل: إن الدعاء له واجب لما في تركه من الفتنة غالباً لم يبعد، كما قيل به في قيام الناس بعضهم لبعض. والظاهر أن منع المتقدمين مبني على ما كان في زمانهم من المجازفة في وصفه، مثل السلطان العادل الأكرم شاهنشاه الأعظم مالك رقاب الأمم، ففي كتاب الردة من التاتارخانية سئل الصفار: هل يجوز ذلك؟ فقال: لا؛ لأن بعض ألفاظه كفر، وبعضها

كذب، وقال أبومنصور: وأما شاهنشاه فهو من خصائص الله تعالى بدون وصف الأعظم لا يجوز وصف العباد به، وأما مالك رقاب الأمم فهو كذب. اهـ.

وقال ابن عابدين أيضاً: قال في البزازية: فلذا كان أئمة خوارزم يتباعدون عن المحراب يوم العيد والجمعة. اهـ.

وقال ابن عابدين أيضاً: وأما ما اعتيد في زماننا من الدعاء للسلاطين العثمانية أيّدهم الله تعالى، كسلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين، فلا مانع منه، والله تعالى أعلم. اهـ.

وقال شمس الدين الرملي من الشافعية: «بل يسن ولا بأس كما في الروضة والمجموع بالدعاء للسلطان بعينه إن لم يكن في وصفه مجازفة».

وقال النووي في «المجموع»: «وأما الدعاء للسلطان ـ يعني في الجمعة ـ فاتفق أصحابنا على أنه لا يجب ولا يستحب، وظاهر كلام المصنف وغيره: أنه بدعه، إما مكروه، وإما خلاف الأولىٰ. هذا إذا دعا له بعينه، فأما الدعاء لأئمة المسلمين وولاة أمورهم بالصلاح والإعانة على الحق والقيام بالعدل ونحو ذلك، ولجيوش الإسلام فمستحب بالاتفاق. والمختار أنه لا بأس بالدعاء للسلطان بعينه إذا لم يكن مجازفة في وصفه ونحوها. والله أعلم. اهـ.

وقال النووي أيضاً: ويكره المجازفة في أوصاف السلاطين في الدعاء لهم، وكذبهم في كثير من ذلك كقولهم: السلطان العالم العادل ونحوه. اهـ.

قال الشيخ عبدالله أبا بطين: الدعاء حسن، يدعى بأن الله يصلحه ويسدده ويصلح به، وينصره على الكفار وأهل الفساد، بخلاف ما في بعض الخطب من الثناء والمدح بالكذب، وولي الأمر إنما يدعى له لا

يمدح لاسيما بما ليس فيه. اهـ.

وفي فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ما نصه:

الأفضل إذا دعا الخطيب أن يعم بدعوته حكام المسلمين ورعيتهم، وإذا خصَّ إمام بلاده بالدعاء بالهداية والتوفيق فذلك حسن، لما في ذلك من المصلحة العامة للمسلمين إذا أجاب الله الدعاء. اهـ.

هذا حاصل ما وقفت عليه في هذه المسألة. والعلم عند الله تعالى.

فائـــدة:

قال في «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج»: ونقل عن ابن عبدالسلام والغزالي تحريم الدعاء للمؤمنين والمؤمنات بمغفرة جميع ذنوبهم وبعدم دخولهم النار؛ لأنا نقطع بخبر الله تعالى وخبر رسوله ﷺ أن فيهم من يدخل النار، وأما الدعاء بالمغفرة في قوله تعالى حكاية عن نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ونحو ذلك، فإنه ورد بصيغة الفعل في سياق الإثبات، وذلك لا يقتضي العموم؛ لأن الأفعال نكرات، ولجواز قصد معهود خاص وهو أهل زمانه مثلاً. اهـ.

(٢١) «التزام كثير من الخطباء ببعض الألفاظ في الخطبة على الديمومة»:

إن المتتبع لكثير من خطباء المسلمين ليكاد يجدهم متفقين على بعض الألفاظ في الخطب، وقلَّ أن تترك هذه العادة، بل ولربما ظن كثير من العامة أن مثل هذه الألفاظ من صلب الخطبة، أو أن الخطبة تكون ناقصة من دون إيرادها، أو أن يحصل النكير من بعض العامة إذا تُرِكَت، وما ذاك إلا لكثرة مداومة الخطباء عليها، وأذكر على سبيل المثال بعض الألفاظ كقولهم مثلاً:

١ ـ اختتام آخر الخطبة الأولى بآية، وقبل أن يختم بهذه الآية يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، في حين إنه لا يستعيذ في إيراد غيرها من الآيات.

٢ ـ المواظبة على ختم الخطبة بقول بعضهم: أقول قولي هذا وأستغفر الله. . . إلخ.

٣ ـ قول بعضهم على سبيل الديمومة: هذا وصلُّوا رحمكم الله. . . إلخ في آخر الخطبة الثانية. أو جعل محل الصلاة على النبي ﷺ في هذا الموضع دائماً.

٤ ـ قول بعضهم في آخر الخطبة الثانية على سبيل الديمومة: عباد الله، اذكروا الله العظيم يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم. . . إلخ.

فهذه الألفاظ قلَّ أن تختفي لدى كثير من الخطباء. والذي ينبغي للخطيب أن ينوِّع في مثل هذا؛ لئلا يظن الناس أن هذا من الواجب، بل إن ترك الشيء لتوضيح الحقيقة مما يجب على المسلم الذي يقتدى به، بل لو ترك السنة أحياناً إذا ظن بعض الناس من خلال المواظبة عليها أنها من الواجب؛ فإن هذا الترك يكون مشروعاً. ومثل هذا منقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في قوله: «**فإنه إذا ظن العامة أن المواظبة على قراءة السجدة والإنسان في فجر الجمعة من الواجب فإنه يستحب تركها أحياناً لإزالة هذا اللبس**».

وقد قال ابن القيم رحمه الله في مثل هذا أيضاً: ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة ـ يعني سورة السجدة ـ دفعاً لتوهم الجاهلين.

وقال شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين في شرحه على زاد المستقنع ما نصه: «وكل شيء يوجب أن يفهم الناس منه خلاف حقيقة الواقع فإنه ينبغي تجنبه». اهـ.

(٢٢) «إيضاح حول البيان والفصاحة في الخطبة»:

للعلماء في هذه المسألة توجهان أو قولان. وهما مبنيان على ما فهمه كل من نص النبي ﷺ الذي رواه مالك في الموطأ والبخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله ﷺ: **«إن من البيان لسحرا، أو إن بعض البيان لسحر»**.

ويمكن تصنيف الفهم من هذا الحديث إلى قولين:

القول الأول: إن هذا الحديث جاء في معرض ذم البلاغة، إذ شبهها النبي ﷺ بالسحر، والسحر محرم مذموم، وذلك لما فيها من تصوير الباطل في صورة الحق والتفيهق والتشدق، وقد جاء في الثرثارين المتفيهقين ما جاء من الذم، وإلى هذا المعنى ذهب طائفة من أصحاب مالك.

وقال **ابن القيم** رحمه الله: «وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفِقر وعلم البديع، فنقص بل عُدم حظ القلوب منها، وفات المقصود بها.

القول الثاني: قال ابن عبدالبر في «التمهيد» عن هذا القول ما ملخصه: وأبى جمهور أهل الأدب والعلم بلسان العرب إلا أن يجعلوا قوله ﷺ: **«إن من البيان لسحرا»** مدحاً وثناءً وتفضيلاً للبيان وإطراءً، وهو الذي تدل عليه سياقة الخبر ولفظه على ما نورده في هذا الباب إن شاء الله.

فعن ابن عباس قال: اجتمع عند النبي ﷺ قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وعمر بن الأهتم، ففخر الزبرقان فقال: يا رسول الله، أنا سيد تميم المطاع فيهم، والمجاب منهم، آخذ لهم بحقوقهم، وأمنعهم

من الظلم، وهذا يعلم ذلك، يعني عمرو بن الأهتم، فقال عمرو: وإنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في أدانيه، فقال الزبرقان: والله لقد كذب يا رسول الله، وما يمنعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو: أنا أحسدك! فوالله لبئيس الخال، حديث المال، أحمق الوالد، مبغض في العشيرة، والله يا رسول الله ما كذبت فيما قلت أولاً، ولقد صدقت فيما قلت آخراً، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما وجدت، ولقد صدقت في الأمرين جميعاً، فقال النبي ﷺ: **«إن من البيان لسحرا»**. اهـ.

قلت: رواه أحمد وابن حبان والحاكم وسكت عليه ووافقه الذهبي.

قال ابن عبدالبر: وفي هذا دليل على مدح البيان وفضل البلاغة، والتعجب بما يسمع من فصاحة أهلها، وفيه المجاز والاستعارة الحسنة؛ لأن البيان ليس بسحر على الحقيقة، وفيه الإفراط في المدح؛ لأنه لا شيء في الإعجاب والأخذ بالقلوب يبلغ مبلغ السحر، وقد ذهب هذا القول منه ﷺ مثلاً سائراً في الناس، إذا سمعوا كلاماً يعجبهم قالوا: إن من البيان لسحرا. ويقولون في مثل هذا أيضاً: هذا السحر الحلال، ونحو ذلك. قد صار هذا مثلاً أيضاً. وروي أن سائلاً سأل عمر بن عبدالعزيز حاجة بكلام أعجبه، فقال عمر: هذا والله السحر الحلال. وفي هذا الحديث ما يدل على أن التعجب من الإحسان والبيان موجود في طباع ذوي العقول والبلاغة، وكان ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، إلا أنه بإنصافه كان يعرف لكل ذي فضل فضله وإنما يحمد العلماء البلاغة واللسانه ما لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب والتفيهق، فقد روي في الثرثارين المتفيهقين أنهم أبغض الناس إلى الله ورسوله.

وهذا والله أعلم إذا كان ممن يحاول تزيين الباطل وتحسينه بلفظه، ويريد إقامته في صورة الحق، فهذا هو المكروه الذي ورد فيه التغليظ، وأما قول الحق فحسن جميل على كل حال، كان فيه إطناب أو لم يكن، إذا لم يتجاوز الحق، وإن كنت أحب أوساط الأمور، فإن ذلك أعدلها، والذي اتفق العلماء باللغة في مدحه من البلاغة والإيجاز والاختصار وإدراك المعاني الجسيمة بالألفاظ اليسيرة.

وقال ابن عبدالبر أيضاً: كان الشعبي إذا سمع حديثاً ورده، فكأنه زاد فيه من تحسينه للفظه، فسمع يوماً حديثاً وقد سمعه معه جليس له يقال له رزين، فرده الشعبي وحسنه، فقال له رزين: اتق الله يا أبا عمرو، ليس هكذا الحديث، فقال له الشعبي: يا رزين، ما كان أحوجك إلى محدرج شديد الجلد لين المهزة، عظيم الثمرة، أخذ ما بين مغرز عنق إلى عجب ذنب، يوضع منك في مثل ذلك، فتكثر له رقصاتك من غير جذل، فلم يدر ما قال له، فقال: وما ذاك؟ قال: شيء لنا فيه أرب ولك فيه أدب.

ومن أحسن ما قيل في مدح البلاغة من النظم، قول حسان بن ثابت في ابن عباس:

صموت إذا ما الصمت زين لأهله ... وفتاق أبكار الكلام المختم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ... ونيطت له الآداب باللحم والدم

ولحسان أيضاً في ابن عباس رضي الله عنه، ويروى للحطيئة:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل ... بمنتظمات لا ترى بينها فصلا
يقول مقالاً لا يقولون مثله ... كنحت الصفا لم يبق في غاية فضلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع ... لذي إربة في القول جداً ولا هزلاً.
اهـ

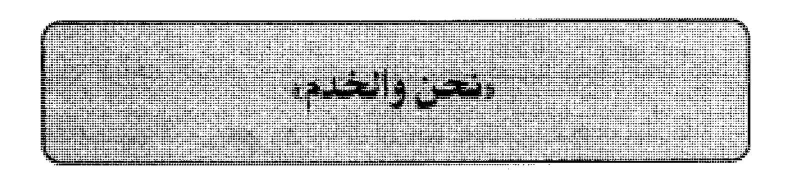
هذا خلاصة ما ذكر ابن عبدالبر رحمه الله. والله الموفق.

فائدة جليلة لابن القيم رحمه الله :

يتحدث ابن القيم رحمه الله واصفاً خطب النبي ﷺ وما آلت إليه الحال بعده ﷺ في عصر ابن القيم رحمه الله فيقول: وكذلك كانت خطبه ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان من: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولقائه، وذكر الجنة والنار، وما أعدَّ الله لأوليائه وأهل طاعته، وما أعدَّ لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً، ومعرفة بالله وأيامه، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله، ولا توحيداً له، ولا معرفة خاصة به، ولا تذكيراً بأيامه، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة، غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم. فيا ليت شعري أي إيمان حصل بهذا؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به؟!

ومن تأمَّل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفات الرب جل جلاله، وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه، وأيامه التي تخوِّفهم من بأسه، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم، ثم طال العهد، وخفي نور النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً تُقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعطوها صورها، وزيَّنوها بما زيَّنوها به، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها، وأخلوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها، فرصَّعوا الخطب بالتسجيع والفِقر وعلم البديع، فنقص بل عدم حظ القلوب منها وفات المقصود بها. اهـ.

❊ ❊ ❊



الخطبة الأولى

الحمد لله ولي الصالحين، وناصر المستضعفين، ومجيب دعوة المضطرين، نحمده سبحانه ونثني عليه الخير كله، نشكره ولا نكفره، ونخلع ونترك من يفجره، إياه نعبد، وله نصلي ونسجد، وإليه نسعى ونحفد، نرجو رحمته ونخشى عذابه، إن عذابه الجد بالكفار ملحق.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بعثه الله رحمة للعالمين، بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغر الميامين، رضي الله عنهم ورضوا عنه، إن الله لعلي حكيم.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ومن ثم فلتعلموا أن نعم الله علينا تترى، يكذب مدعي حصرها،

ويعجز مؤمل عدها، نعم.. تترادف حلقاتها، تقول اللاحقة للسابقة: أختي أختي، نعم.. في شئون العبادات والدين ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]، ونعم أخرى في وسائل الفهم وحسن التعايش، ونعم في تسخير البشر بعضهم لبعض، ونعم، ونعم، ونعم، يخص ربنا بها هذا ويمنح ذاك، ويقدر على هذا، ويمنع ذاك: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [الزخرف: ٣٢].

تسخير العباد بعضهم لبعض من أعظم منن الله على خلقه، وأكثرها ابتلاءً وامتحانًا في الوقت ذاته، **ألا وإن ثمة ظاهرة متفشية، هي من نوع التسخير الذي منّ الله به على عباده**، ظاهرة استطالت جذورها، واتسع نطاقها، حتى أصبحت من فرط اتخاذها عادة فحسب أن جعلت في منأى عن التأمل والتبصر، والنظر المنصف في حقيقتها، وحسن الإفادة منها، بله التفكر فيما يجب لها وما فرض عليها، إنها ظاهرة ليست وليدة الحاضر، ولكنها ليست قديمة الماضي، هي في مأزق من الأمر، تترقب الأطروحات الجادة، والبحوث المثمرة من على منابر التوجيه والإرشاد، أو في المنتديات العامة والتوجيه الإعلامي، **أتدرون أي ظاهرة هذه؟، إنها ظاهرة الخدم**.

نعم.. إنها ظاهرة الخدم إنها بحق ظاهرة، ولكن ليس هذا هو العجب، وإنما العجب أن تكون بهذا الحجم الكبير بين ظهرانينا، دون أن تكون محلاً لحسن التكييف، وصحة الأسلمة لها، يعب الناس منها عبًا، لا يلوي الكثير منهم على شيء سوى أنها عادة وطبع وتفاخر، وحب في الرفعة والشرف، وحب في التسلط والتشبه ببلاط السلاطين ونحوهم.

إننا لو أمعنا النظر شيئًا يسيرًا لوجدنا أن هذه الظاهرة مترامية الأطراف، وأن الحديث عنها يعوزه الوقت الطويل بعد سبرها وتشخيصها من خلال استقراء ميداني واسع النطاق، ولكن على حد قول القائل: ما لا يدرك كله لا يترك كله، فلنكتف إذًا بشذرات متفرقة التناثر حول ما يتعلق بهذه الظاهرة الجُلّى.

فأقول: أيها المسلمون:

إن أول ما ينبغي أن يذكر به هو أن الله سبحانه قد منَّ على أمة الإسلام، فجعلها تابعة لا متبوعة، وأنه لم ولن يجعلها لقمة سائغة لتسلط أهل الكفر في الجملة، وذلك عباد الله، يظهر بوضوح لما نرمي إليه من خلال سماع قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد في مسنده حيث قال ﷺ: «**سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على سروج كأشباه الرحال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهم كأسنمة البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم، كما يخدمنكم نساء الأمم قبلكم**».

إذًا لقد رحم الله أمة محمد ﷺ أن لم يكن أمة أخرى وراءهم، يكون نساء المسلمين خدمًا لهم، كما صاروا خدمًا لنا عبر التأريخ.

لقد كان الخدم فيما مضى هم المملوكين لمن يخدمونهم، وذلك بسبب الحروب الناشبة بين أهل الكفر وأهل الإسلام، وبقاء راية الجهاد في سبيل الله تطاول الزمان شامخة، وفي عصرنا الحاضر قلّ الرقيق واضمحل أمره إلى درجة لا تكاد تذكر في العيان، وصار الخدم كلهم من الأحرار.

ولو فرزنا حقوق المملوكين التي أوجبها الإسلام على الأسياد، ورأينا ما لهم من حقوق وواجبات وما عليهم من مثلها، مما لم يحصل لكثير من الأحرار اليوم ـ لعلمنا سحق الهوة، وعمق الجرح الذي يعيشه كثير من

المسلمين اليوم، ولحلت عبارة الرجل المسلم لعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه حينما قال: «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا».

إننا - أيها المسلمون - قبل أن نخوض في غمرات هذه المعرّة، وقبل أن ندلل عليها، ونكشف عوارها يجدر بنا أن نشير على اقتضاب إلى أهمية استغناء المرء بنفسه، وتوكله على الله، وعدم سؤال الآخرين من خدم وغيرهم، وتلك لعمر الله مزية قلّ أن توجد في أوساطنا، فإلى الله المشتكى.

يقول أحد الصحابة فيما رواه مسلم في صحيحه: «بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نسأل الناس شيئًا، حتى إن أحدنا ليسقط سوطه في الأرض، ما يقول لأحد ناولنيه».

ومن هنا فإن الاستغناء عن الخدم وعن الإكثار منهم غنيمة باردة، ولو لم يكن فيها إلا السلامة من عواقبهم والوقوع في سلبياتهم التي يقل الفكاك منها لكفى، ورحم الله الإمام أحمد حينما قال: «السلامة لا يعد لها شيء»، وعلى مثل قول الإمام أحمد نرشد كل مسلم، على ألا يلجأ إليهم إلا في حالات الحاجة الملحة، مع عدم استغفال السلامة وأنها مطلب.

ونقول أيضًا لكل مسلم شاخصة أحداقُه، مشرئب إلى اتخاذ الخدم، ولكن بينه وبين حصول ذلك مسكنة وفقر تجعله أقرب في أن يخدم من أن يُخدم، نقول له ولأمثاله: اسمع قول النبي ﷺ بعد هنيهة لتكون رضي البال، شاكرًا ولي نعمتك «اشتكى علي وفاطمة رضي الله عنهما إلى النبي ﷺ ما تواجهه من الطحن والعمل المجهد، فسألته خادمًا، فقال رسول الله ﷺ: **«ألا أدلك على ما هو خير لكِ من خادم؟، إذا أويتما إلى فراشكما فسبحا الله ثلاثًا وثلاثين، واحمداه ثلاثًا وثلاثين، وكبراه أربعًا وثلاثين، فتلك مائة على اللسان، وألف**

في الميـــزان» ، فـقـال عــلي رضي الله عنـه : «ما تــركتـهـا بعدما سمعتـها من النبي ﷺ» ، فقال له رجل : ولا ليلة صفين؟ ، قال : «ولا ليلة صفين» ، رواه أحمد ، وليلة صفين ليلة حرب ضروس ، دارت بينه وبين خصومه رضي الله عنهم أجمعين .

هذه ـ يا رعاكم الله ـ صورة حية من الاستغناء عن الغير ، بيد أن في الناس فئامًا لها ولع بمشاكلة الناس ، والسير في ركاب الجمهور منهم ، وحب التباهي مع قلة ذات اليد فيطمعون في الإكثار من الخدم والتنويع فيهم ، فلهؤلاء نقول : رويدكم . . مهلاً فمتاع الدنيا قليل ، ولتقنعوا بمثالين عظيمين ، يمكن من خلالهما حصول القناعة ، والرضا بالمقسوم ، والزهد في الدنيا ، والاكتفاء من الخدم بما سد الحاجة :

روى مسلم في صحيحه أن رجلاً قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : ألسنا من فقراء المهاجرين؟ ، فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوي إليها؟ ، قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه؟ . قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإن لي خادمًا . قال : فأنت إذًا من الملوك ، فيالله العجب من قول ابن العاص رضي الله عنه ، إذًا ما أسهل ملك الدنيا وما أحقره ، فما بال أقوام لا يقنعون بمثل هذا .

ألا تسمعون ـ حفظكم الله ـ المثل الثاني الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «**أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم ، واثنتان وسبعون زوجة**» ، الحديث رواه الترمذي في جامعه ، إذا سمعتم ذلك ، فمن هم خدم الجنة؟ ، إنهم ولدان مخلدون ، وغلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، اللهم لا تحرمنا خير ما عندك بشر ما عندنا .

حضرات المسلمين:

مَنْ كان منكم متخذًا خادمًا فليعلم أن عليه مراعاة أمور هامة:

أولها: اختيار الأمين الصادق، كما قال تعالى عن ابنتي شعيب حينما قالا لأبيهما: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ولا يغيب عن بالنا أثر الأمانة والصدق في ذوات الخدم من خلال موقف يوسف عليه السلام من امرأة العزيز حينما قالت له: هيت لك، فكان الجواب: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

كانوا يدعون السيد ربًا، فهو يرى أن سيده أكرمه وأحسن مثواه، فلا يلوث ذلك بالتخون والفاحشة، أين الكثيرين عن هذا الأمر الجلل؟.

أين اختيار الخادم المسلم ذكرًا كان أو أنثى؟، لله كم هم صرعى الخدم غير المسلمين، وماذا عسى أن يُجنى منهم، دين غير ديننا، يحلون ما نحرم، ويحرمون ما نحل، فضلاً عما يقوم به جملة منهم إلى ما يسمى التنصير والدعوة إلى مللهم إبان غفلة من الجمهور.

ألا وأين إحضار المحرم مع الخادم الذي يكون سببًا بإذن الله في قلة الفواحش والبعد عن الزلل والأمن على النفس والعرض؟، ألا إن الكثيرين منا لا يبالون بالسائقين والخدم، امرأة مع سائق، ورجل مع امرأة خادم، خادم تتكشف لمخدومها، وسائق تنكشف له مخدومته، وكأنه من غير أولي الإربة من الرجال، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، تساهل في الأمر واستخفاف به.

وثاني الأمور- عباد الله- تكمن أهميته في عدم الركون إلى الخدم في تربية الأطفال، وكثرة محاكاتهم، ويزداد الأمر تأكيدًا إن كانوا غير مسلمين، لأن من الأمور المسلمة أن كثرة المحاكاة تحدث مشاكلة في الطباع، ومن هنا يقع التأثر والتأثير في بني آدم؛ بل إن الآدمي إذا عاشر نوعًا من الحيوان اكتسب

بعض أخلاقه، فنجد الجمالين والبغالين فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال، ونجد الحيوان الإنسي فيه بعض أخلاق الناس، بسبب المؤالفة وقلة النفرة، وقديمًا قيل: الطيور على أشكالها تقع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفرًا من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جرد الإسلام.

كل ذلك - أيها المسلمون - سبب في التأثير على الطفل، فضلاً عن كون صحة الطفل النفسية والدينية ناتجة عن تفرغ الأم لطفلها، وعدم إسلامه للأجنبي عنها، ألا وإن تركه الساعات الطوال مع الخدم لا يضمن تمتعه بالرعاية الدافئة التي يحتاجها كل حين، وثم دراسات نفسية كثيرة نشرت برامجها عبر جهات أكاديمية وأخرى تطبيقية كما يقال كلها تتفق على أن جل الأطفال والصغار من ذوي المشاكل النفسية هم الذين عانوا حرمانًا عاطفيًا كبيرًا في طفولتهم المبكرة بسبب غياب أمهاتهم عنهم، وإسلامهم إلى الخدم.

ألا ترون يا رعاكم الله كيف تكون حال الطفل إذا غابت عنه أمه؟، ماذا يحدث عندما يشاهدها بعد فترة غيابها، إنه يشد إليها بقوة، فحين تندفع إليه لترضعه يلتقمها بلهفة، ويحاول أخذ حاجته بلهفة، ولربما خانته حاسة البلع فشرق وغص، مع ما يصاحب ذلك من نظرات شذراء إلى أمه، تدل على الشره واللوم، دون استطاعة عن تعبير ذلك باللسان، فماذا عسى الخادم أن تفعل، إن قلبها ليس كقلب الأم، وحنانها ليس كحنان الأم، ولا غرو إذ ليست النائحة المستأجرة كالمرأة الثكلى.

أما ثالث الأمور - أيها الناس -: فهو أن يتقي المرء ربه، وأن يعلم أن أمر الخدم محسوم في شريعة الله، وأن هناك حدودًا ينبغي ألا يتجاوزها المرء

المسلم، ومن ذلك:

الحجاب الشرعي للخادمة، فلا يجوز أن تتكشف لذكور المنزل، ولا أن تختلط برجاله، أو أن تخلو بأحد منهم، وأن التباهي بالخدم النساء، وكشفهن للعيان في الأسواق والأفراح والمستشفيات، من باب التباهي وحب الظهور لهو أمر جد خطير، فيه من الإثم والوزر الشيء الكثير، فضلاً عن كون ذلك مدعاة لفتنة الناس وجذب أبصارهم ووقوعهم في النظر إلى ما حرم الله.

وكذا الرجل الخادم، لا يجوز أن يخلو بالمرأة، لا في منزلها، ولا في سيارتها، ولا أن تكشف وجهها له.

أضيفوا إلى ذلك أمر الخدم بالتزام شرع الله إن كانوا مسلمين، أو دعوتهم إلى الإسلام إن كانوا غير ذلك، مع التأكيد بحزم على وجوب الاستغناء عن الكفار، لا سيما في جزيرة العرب لأمر النبي ﷺ بإخراجهم منها.

وكذا الظهور بمظهر القدوة الصالحة أمام الخدم، وذلك بالكرم والعطف، والصدق والصفح ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ثم الحذر الحذر من التساهل مع من لا يخاف الله منهم، أو التقليل من خطورة أمرهم، ويزيد الأمر تأكيداً حينما يكون بعضهم من مرضى الأفئدة، وممن يكون مظنة الانتقام وحب الإفساد من مثيري اللغط، وهدم البيوت، واستخدام الشعوذة والسحر، وقلب ظهر المجن على البيت وأربابه، ونشر أسرار البيوت وأحوالها إلى خدم البيوت الأخرى، وكم هم صرعى هذا التقصير، وكم هم ضحايا هذا الإهمال، إذ بعض الخدم إذا شبع فسق، وإذا جاع سرق، ولا جرم فقد قال مجاهد رحمه الله: إذا كثرت الخدم كثرت

الشياطين. ووقائع المجتمعات وأحاديث المجالس تغص بها الحلوق وتطفح بها الآذان.

ألا وإن هذا ليذكرنا بقول النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن كان الشؤم في شيء، ففي الفرس، والمرأة، والخادم، والمسكن**».

قال الخطابي وجماعة من أهل العلم: هذا الحديث هو في معنى الاستثناء من الطيرة، أي إن الطيرة منهي عنها في قوله ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح**» رواه مسلم، إلا أن يكون للمرء دار يسكنها وهو كاره لها، أو زوجة يكره صحبتها، أو فرس، أو خادم، فليفارق الجميع ببيع أو نحوه.

قال أهل العلم: وشؤم الخادم سوء خلقه، وقلة تعهده لما فوّض إليه.

وأقول حفظكم الله هذا الحديث وأقوال أهل العلم إنما هو فيما مضى من زمن الصدق والدين، فما بالكم في هذا الزمن، سبحان الله ما أبعد الليلة عن البارحة، وما أشبه اليوم بما هو على عكس الأمس.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم..

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا لا ينفد، أفضل ما ينبغي أن يحمد، وأصلي وأسلم على أفضل المصطفين محمد، وعلى آله وصحبه ومن تعبد:

أما بعد:

فاتقوا الله أمة الإسلام، واعلموا أن أحسن الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

أيها المسلمون:

العدل في القضايا من سمات المسلمين، وإعطاء كل ذي حق حقه هو مما أوجبه الله على عباده، وإن كان ثم مآخذ غير مرضية تصدر تارات كثيرة من الخدم، فإننا في المقام نفسه نشير إلى سمات متعددة من الحقوق والواجبات التي يستحقونها، ومن ذلك:

احترام قدرهم، وأنهم بشر مثلنا، فنتلطف معهم، ونرحم غربتهم، وأنه لولا حاجتهم إلى المال واكتسابه لما هان عليهم فراق العيال والسفر آلاف الأميال، فلتطعموهم إذا طعمتم، يقول رسول الله ﷺ: «**إذا أتى أحدكم خادمهُ بطعام، فإن لم يجلسه معه فليناوله أكلة أو أكلتين، أو لقمة أو لقمتين**» رواه البخاري، ولا تحقرن إطعام الخادم، ولو لم يكن ذلك في صلب العقد بينكما، فرسول الله ﷺ يقول: «**وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة**» رواه أحمد.

وإياك إياك أيها المرء أن تتوانى أو تتأخر في إعطائه أجرته في حينها ، فلنفسه إذ ذاك ولع بها ، كما تفرح أنت بمحصلتك ، يقول رسول الله ﷺ : «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**» رواه ابن ماجه .

وإلا فاعلم أنك خصيم للنبي ﷺ حيث يقول : «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة** .. وذكر منهم : **رجلاً استأجر أجيرًا فاستوفى منه ، ولم يعطه أجره**» رواه البخاري .

فاتقوا الله يا أهل البيوتات ، واتقوا الله يا أصحاب الشركات والمؤسسات والتعهدات ، وأعطوا العمال والخدم أجورهم في أوقاتها المحددة ، وإلا فأعدوا لمخاصمة نبيكم ﷺ جوابًا ، وللجواب جلبابًا .

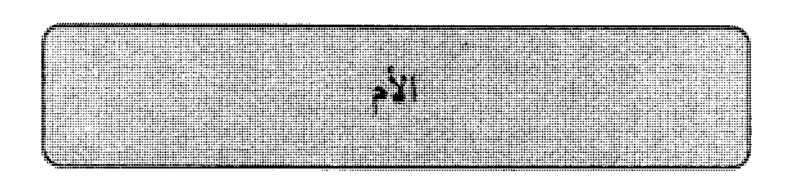
وإياكم وضرب العمال والخدم ، فقد ضرب أبو مسعود رضي الله عنه غلامًا له ، فقال له النبي ﷺ : «**اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منه** ، فقال أبو مسعود : يا رسول الله ، فهو حر لوجه الله . فقال ﷺ : **أما إن لو لم تفعل لمستك النار ـ أو للفحتك النار ـ**» رواه مسلم والترمذي .

ولم يكن الأمر مقتصراً على مس اليد فحسب ، بل وحتى اللفظ باللسان من شتم وسب ، فقد نهى النبي ﷺ عن ذلك فقال : «**لا تدعوا على خدمكم**» ، رواه أبو داود .

وسمعت أم الدرداء عبد الملك بن مروان قد لعن خادمه ، فقالت أم الدرداء : سمعتك الليلة لعنت خادمك حين دعوته ، فقد سمعت أبا الدرداء يقول : قال رسول الله ﷺ : «**لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**» رواه مسلم .

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين ، وصلوا وسلموا على نبيكم . .

* * *



الخطبة الأولى

الحمد لله نحمده حق حمده، يعلم السر وأخفى ، والجهر والنجوى، خلق فسوى، وقدر فهدى، وأخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى، له ما في السماوات وما في الأرض، يجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يَذكرُ من يذكره، ويرضى على من يشكره وهو خير الرازقين.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغر الميامين، وعلى تابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن خير ما يوصي به المرءُ صنوَه هوتقوى الله جل جلاله، فاتقوا الله أيها

المسلمون حق التقوى، واستمسكوا من الإسلام بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، واحذروا المعاصي ومحقرات الذنوب، فإن أقدامكم على نار جهنم لا تقوى، واعملوا على ما يقرب من جنة المولى، التي لا يظمأ فيها أحد ولا يضحى، ولا يجوعُ فيها ولا يعرى، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، والعاقبة للتقوى:

أيها الناس:

على البسيطة من هذا الكون، ثم مخلوقة ضعيفة، تغلب عليها العاطفة الحانية، والرقة الهاتنة، لها من الجهود والفضائل، والحمل على المكارم المنتشلة من المآثم، ما قد يتجاهله ذوو الترف، ممن لهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، ولهم قلوب لا يفقهون بها.

هي جندية حيث لا جند، وهي حارسة حيث لا حرس، لها من قوة الجذب وملكة الاستعطاف ما تأخذ به لب الصبي والشرخِ كلّه، وتملك نياط العاطفة دقها وجلها، وتحل منه محل العضو من الجسد، والخلب من الكبد، حتى تصبَح مُلكه ومَلكه، لا يكاد يعود إليها الطرف برهةَ إلا كان العود أحمد، والعين بها تسعد، بطنها له وعاء، وثديها له سقاء، وحجرها له حواء، إنه ليملك فيها حق الرحمة والحنان، لكمالها ونضجها، وهي أَضعف خلق الله إنسانًا، إنها مخلوقة تسمى الأم، وما أدراكم ما الأم؟!

أم الإنسان - عباد الله - هي أصله وعماده الذي يتكئ عليه، ويرد إليه ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، وكون الشيء أصلاً وعمادًا، دليل بارز بجلائه على المكانة وعلو الشأن وقوة المرجعية.

ألا ترون يا رعاكم الله أن أم البشر حواء، وأم القوم رئيسُهم، وأم الكتاب الفاتحة، وأم القرى مكة، وفي ثنايا العلوم كتاب الأم للشافعي رحمه الله.

أيها المسلمون:

من خلال هذه المقدمة الوجيزة عن الأم، ربما يدور بخلَد سائل ما سؤال مفاده: أيوجد ثم مشكلة تستدعي الحديث عن مخلوقة ليست هي بدعًا من البشر؟، أم أن الحديث عنها نوع تسلية وقتل للأوقات؟، أم أن الأمر ليس هذا ولا ذاك؟.

والجواب الذي لا مراء فيه أن الأمر ليس هذا ولا ذاك، بل إن الأمر أبعد من هذا وأجل، إننا حينما نتحدث عن الأم، فإننا نتحدث عنها على أنها قرينةُ الأب، لها شأن في المجتمع المكون من البيوتات، والبيوتات المكونة من الأسر، والأسر المكونة منها ومن بعلها وأولادها، هي نصف البشرية، ويخرج من بين ترائبها نصف آخر، فكأنها بذلك أمةٌ بتمامها، بل هي تلد الأمة الكاملة.

إضافة إلى ما أولاه الإسلام من رعاية لحق الأم، ووضع مكانتها موضع الاعتبار، فلها مقام في الحضانة، ولها مقام في الرضاع، وقولوا مثل ذلك في النفقة والبر وكذا الإرث.

ناهيكم أيها المسلمون عن كوننا نعيش في أوساط عصر قل فيه من كل صقع منصف، لا يضيره أن كان ذا رحم، وذلك باد في المنتديات باد في غير ما ضمير، يبرز في الندوات أو الصحافة تارة، وفي المسموع والمرأي تارة أخرى، وفي المنتديات والجمعيات تارة وتارات.

فالحديث عن الأم إذًا يحتل حيزًا كبيرًا من تفكير الباحثين فيما مر ذكره، فكان لزامًا على كل من يهيئ نفسه لخوض مثل هذا الطرح أن يكون فكره مشغولاً بها، يفرح لاستقامة أمرها، ويأسى لعوجه، ويتفرسُ جاهدًا في الأطروحات المتسللة لواذًا ليميز الخبيث من الطيب، فلا هو يسمع للمتشائمين القانطين، ولا هو في الوقت نفسه يلهث وراء المتهورين كما يصور ذلك من هو أحمق أو مسعور، هو أدل من اسم المحل على بضاعة المحل.

والمرتكز الجامع في هذه القضية، والذي سيكون ضحية التضارب والمآرب هي أمي وأمك وأم خالد وزيد، وحينئذ يجني الأولاد على أمهاتكم، ويقطعون أصلاً وأسًا قرره رسول الله ﷺ لرجل حين جاء يسأله: مَنْ أحق الناس بحسن صحابتي؟، قال: **أمك**، قال: ثم من؟، قال: **أمك**، قال: ثم من؟، قال: **أمك**، قال: ثم من؟، قال: **أبوك**» خرجاه في الصحيحين، وسلام الله على نبيه عيسى حين قال: ﴿ **وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا** ﴾ [مريم: ٣٢].

إن الارتفاع بشأن الأم في أوساط الناس وفقَ الحدود والمعالم التي حددها الشارع الحكيم لهو من دواعي رفعة البيت المسلم، كما أن المحاولات الخبيثة في خلخلة وظيفتها التي فطرها الله عليها من حيث تشعر هي أو لا تشعر، سببٌ ولا شك في فساد الاجتماع وضياع الأجناس، وانثلام العروة، ولأن يكون النظام البشري مقلوبًا فتظهر غلطات البيوت المتخربة، والمسئولية المهدمة، ويضيع الواجب الذي ألقاه الرجال عن عواتقهم، فوقعت الأم حيث وقعت، وأزاحت عن نفسها مسئولية النسل ورعايته، فأصبحت لنفسها لا لرعيتها، ومن ثم قد تساءل هي نفسها عن السبب، وما السبب إلا ما بيناه آنفًا.

ولعمر الله كم قد تحقر الأم نفسها، أو يغيب عن وعيها مكانتُها وسلطانُها، ولو رفعت ببصرها قليلاً في ديوان من دواوين سنة المصطفى ﷺ لوجدت قول النبي ﷺ: «**والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده**» رواه البخاري.

ومعلوم أن الرعاية لا توكل، إلا لذي قدرة وسلطان على رعيته، ومن هنا علم أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

لقد أصبح دور الأم ضعيفًا في تربية الأبناء، وتوجيههم الوجهة الصحيحة بسبب جهلها، أو غلبة المفاهيم الدخيلة عليها، فانجرفت مع التيارات المناوئة لما

فطرت عليه، فخرج كثير من الأمهات عن بيوتهن، وقلّ تدينُهن وقربُهن من الله بعد الولادة فحصل الإهمال وضاع العيال، ولربما سلَّمت فلذات كبدها بأيدي خادمة غير مسلمة، وإن كان ثم مسلمة فجهلها أضعاف جهل الأم، فكانت كالمستجير من الرمضاء بالنار، والمعلوم المقرر أنه ليس لبشر أمَّان.

لقد انقاد كثير من الأمهات وراء صيحات أهل الكفر، فأعجبت ببريق ما عندهم، وظهر النهم عندهن، حتى إنك لتحسه من إحداهن، فتراها كلما تقدمت في السن والإنجاب ازدادت في التشبب والتفتي، ولا تزال تبتدئ من حيث انتهى أهل الكفر أنفسهم، إذ الأم هناك تعيش تعيسة مهانة، لا أمل لها في ولد ولا بنت، ولربما لم تشعر بقيمة الأمومة والبنوة إلا بكلب تقتنيه، أو سنور يحل في قلبها محل ابن آدم، وذلك كله ليس بمانع هذا الحيوان من أن يكون يومًا ما وريثها الوحيد دون أولادها، وأولادها في غفلة سادرين، ينتظرون خبر وفاتها بفارغ الصبر، لينعموا بما تخلفه من تركة أو عقار، وإن كانت الأم فقيرة الحال ففي دور العجزة والرعاية بالمسنين متسع لها ولمثيلاتها.

إن الذين يزدرون وظيفة ربة البيت التي هي الأم، هم جهال بخطورة هذا المنصب، وآثاره العميقة في حاضر الأم ومستقبلها المشرق، بل إن أعباء هذا المنصب لا تقل مشقة ومكانة عن أحمال الرجال خارج بيوتهم، وإن القدرات الخاصة، والتي توجد لدى بعض الأمهات لا تبرر لهن إلغاء هذا المنصب، الذي لا يليق إلا لهن، ولا يلقن إلا له، فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لكلمات الله.

ثمة ليس أكمل الأمهات تلك الأم التي امتلأت في عقلها بصنوف من العلوم والمعارف النظرية أو التجريبية، في حين إن القلب خواء مما ينفع بيتها أو يفيده.

إن مثل هذه الأم تحل بما تعلمت مشاكل وتخلق مشاكل أخرى، لا ليس

وضع الأم كمثل هذا.

إنما الأم هي تلك المصونة العفيفة، التي أضاءت قلبها بنور الإيمان والطاعة، والاتباع للكتاب والسنة، والتي هي لبعلها وولدها كالإلهام والقوة في إدخال السرور، والنقص من الآلام، ولم تكن الأم قط أعظم من الأب إلا بشيء واحد هو خلقها ودينها، الذي تجعل به زوجها وولدها خيراً وأعظم منها، وقديمًا قيل: وراء كل رجل عظيم امرأة.

فالمرأة - أيها الناس - إما زوجة حانية، أو أم مربية، أو هي في طريقها إلى هذا المصير النبيل بعد أن تشب عن الطوق.

ألا إن تصور الأم إنسانًا قاعدًا في البيت لا شغل له جهل مركب بمعنى الأسرة الحية، كما أن تصورها محلاً لإجادة الطهي والخدمة فحسب ضرب من السلوك المعوج الذي عرفته الأمم الكافرة إبان إفلاسها الأخلاقي والأسري، والذي أثبت من خلاله أن الأم العاطلة خير من الأم الفاسدة الخراجة الولاجة، وأن الأمهات المحتسبات في المخادع والبيوت أشرف من اللواتي يتكشفن لكل عين، ولا يرددن يد لامس أو نظرة لاحظ.

ونحن معاشر المسلمين لا نريد في حياتنا من خلال الواقع المرير أن نوازن بين شرين، لنختار أحدهما أو أخفهما، كلا بل إننا نريد أن نحقق ما طالبنا الإسلام به، من إقامة أسرة مستقيمة يشترك الجنسان معًا في بنائها، وحمل تبعاتها على ما يرضي الله ورسوله، ليتحقق فينا قول الباري جل وعلا: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ [الطور: ٢١].

يقول وكيع بن الجراح: قالت أم سفيان المحدث لولدها سفيان: اذهب فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عشرة أحاديث فانظر هل تجد

في نفسك زيادة؟، فاتبعه وإلا فلا تتبعني.

هذه هي أم أمير المؤمنين في الحديث، وقبل ذلك حذيفة ابن اليمان تسأله أمه: يا بني ما عهدك بالنبي ﷺ؟، قال: من ثلاثة أيام، فنالت منه وأنبته قائلة: كيف تصبر يا حذيفة عن رؤية نبيك ثلاثة أيام؟.

وذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى عن إسحاق بن عبد الله، عن جدته أم سليم رضي الله عنها أنها آمنت برسول الله ﷺ قالت: فجاء أبو أنس وكان غائبًا، فقال: أصبوت؟، قالت: ما صبوت، ولكن آمنت بهذا الرجل، قالت: فجعلت تلقن أنسًا وتشير إليه قل: لا إله إلا الله، قل: أشهد أن محمدًا رسول الله، ففعل، قال: فيقول لها أبوه: لا تفسدي علي ابني، فتقول: لا أفسده، فلما كبر أتت به النبي ﷺ، وقالت له: هذا أنس غلامك فقبله النبي ﷺ.

لقد قامت الأم بدورها الريادي في التربية والتوجيه، متمثلاً في شخصيات وسلف هذه الأمة التي لا تعد حصراً، إيمان بالله، وحسنُ تربية، ولا تفسدُ على زوجها إصلاحَ بيتها، تطلعه على كل ما من شأنه إصلاحُ البيت المسلم، بيتها دار الحضانة الأسمى، لا دور الحضانة المنتشرة في آفاق المسلمين، والتي ينبغي أن لا تُقبل إلا في الضرورات الملجئة.

أيتها الأم المسلمة.. أيها الأب المسلم..

في سير الأسلاف عظةٌ، وفي مواقفهم خير وعبرة، الخنساء رضي الله عنها عُرفت بالبكاء والنواح، وإنشاء المراثي الشهيرة في أخيها المتوفى إبان جاهليتها، وما أن لا مس الإيمان قلبها، وعرفت مقام الأمومة ودورالأم في التضحية والجهاد في إعلاء البيت المسلم ورفعة مقامه عند الله، وعظت أبناءها الأربعة عندما حضرت معركة القادسية تقول لهم: إنكم أسلمتم

طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لابْنُ أب واحد وأم واحدة، ما خبث آباؤكم، ولا فُضحت أخوالكم، فلما أصبحوا باشروا القتال واحدًا بعد واحد حتى قُتلوا، ولما بلغها خبرهم ما زادت على أن قالت: الحمد لله الذي شرفني قتلهم، وأرجو ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

هذه هي الخنساء - يا رعاكم الله - ، هذه هي الخنساء، فأين جملة من رائدات نهضة الأمومة عنها؟، هذه هي الخنساء فأين المتنصلاتُ عن واجب الأمومة عنها؟.

إن جملة منهن ولاشك أقصر باعًا وأنزل رتبة من أن يفقهن مثل هذا المثل، ربما كرهت إحداهن أن تكون أمًا لأربعة، ولو تورطت بهم يومًا ما لما أحسنت حضانتهم وتربيتهم، فلم تدرك ما ترجو، ولم تنفع نفسها ولا أمتها بشيء طائل.

وكفى بالأم إثمًا أن تضيع من تعول، وفي مثل الخنساء تتجلى صورة الأمومة على وجهها الصحيح، وما ذاك إلا للتباين الذي عاشته في جاهليتها وإسلامها.

ومن هنا يظهر عظم المرأة، يظهر تفوقها على رجال كثير مع أنوثتها وقصورها عن الرجال، ولو كان الأمهات كأم سليم وعائشة، وأم سلمة، والخنساء، لفضلت النساء على كثير من الرجال في عصرنا الحاضر، ومعلوم أن تأنيث الشمس لم يكن قط عيبًا لها، كما أن التذكير لم يكن قط فخرًا للهلال، وفي المثل المطروق: أنثى الأسد في غابها خير وأقوى من الديك بين دجاجة ﴿ **فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ** ﴾ [النساء: ٣٤].

بارك الله لي ولكم...

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إلـــــه إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الداعي إلى رضوانه، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه وإخوانه ورضي الله عنهم أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن للأم مكانة غفل عنها جل الناس بسبب ضعف الوازع الديني المنجي من الوقوع في الإثم والمغبة، وعلينا جميعًا أن نعلم أن الأم خير حانية لطيفة المعشر، تحتمل الجفوة وخشونة القول، تعفو وتصفح قبل أن يطلب منها العفو أو الصفح.

حملت جنينها في بطنها تسعة أشهر، يزيدها بنموه ضعفًا، ويحملها فوق ما تطيق عناء، وهي ضعيفة الجسم، واهنة القوى، تقاسي مرارة القيء والوحام، يتقاذفها تمازج من السرور والفرح لا يحس به إلا الأمهات، يتبعها آثار نفسية وجسمية تعمل كل شيء اعتادته قبل حملها بصعوبة بالغة وشدة.

تحمله وهنًا على وهن، تفرح بحركته، وتقلق بسكونه، ثم تأتي ساعة خروجه فتعاني ما تعاني من مخاضها، حتى تكاد تيأس من حياتها، وكأن لسان حالها يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]، ثم لا يكاد الجنين يخرج في بعض الأحايين إلا قسرًا وإرغامًا، فيمزق اللحم، أو يبقر البطن.

فإذا ما أبصرته إلى جانبها نسيت آلامها، وكأن شيئًا لم يكن إذا انقضى، ثم تعلق آمالها فيه، فترى فيه بهجة الحياة وسرورها، والذي تفقهه من قوله

تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

ثم تنصرف إلى خدمته في ليلها ونهارها، تغذيه بصحتها، والنوم والراحة، تقاسي في إرضاعه وفطامه وتربيته ما ينسيها آلام حملها ومخاضها، تقول عائشة رضي الله عنها: «جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ فقال: **إن الله أوجب لها الجنة ـ أو أعتقها من النار ـ**» رواه مسلم.

الله أكبر.. ما أعظم الأم الصادقة المسلمة، ألا فليتق الله الأولاد، وليقدروا للأم حقها وبرها، ولينتهين أقوام عن عقوق أمهاتهم قبل أن تحل بهم عقوبة الله وقارعته، في الصحيحين يقول النبي ﷺ: «**إن الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات**».

وعند أحمد وابن ماجه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يوصيكم في أمهاتكم**» قالها ثلاثًا.

وعند الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ قال: «**إذا فعلت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء..**»، وذكر منها: «**وأطاع الرجل زوجته وعق أمه**».

ألا لا يعجبن أحد ببره بأمه، أو يتعاظم ما يسديه لها، فبرها طريق إلى الجنة، ومعلوم الطريق ما فيه، فمن جد أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، والمعلوم المشاهد أن المتلفت لا يصل سريعًا.

جاء عند البيهقي في شعب الإيمان، والبخاري في الأدب المفرد: «أن أبا بردة بين أبي موسى الأشعري حدّث أنه شهد ابن عمر رجلاً يمانيًا يطوف بالبيت، حمل أمه وراء ظهره يقول: إني لها بعيرها المذلل، **إن أذعرت** ركابها لم أذعر، الله ربي ذو الجلال الأكبر، حملتها أكثر مما حملتني، فهل

ترى جازيتها يابن عمر؟، قال ابن عمر: لا، ولا بزفرة واحدة!.

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أنه ينبغي التنبيه إلى مكانة الأم، وواجب الأولاد والمجتمع تجاهها، لا يعني خرق حدود الشريعة أو تجاوزها، إذ تلك حدود الله فلا تعتدوها، فالأم لا تطاع في معصية الله، ولا يقدم قولها على قول الله ورسوله، ولا ينبغي أن يتشبه بأهل الكفر في طقوسهم ومراسيمهم مع الأم، والتي هي ليست من نهج الإسلام في شيء، حيث يعملون لها يومًا في السنة هو يوم البر بها، يقدمون لها فيه شيئًا من الزهور أو الطيب ونحو ذلك، يسمونه عيد الأم.

وهذا من البدع المنكرة التي يكتنفها آفتان:

أولاهما: تقليد أهل الكفر، ورسول الله ﷺ نهانا عن التشبه بهم، وأمرنا بمخالفتهم، ومن أبى فقد قال عنه: «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**»، حتى لقد قال اليهود عنه: «ما يريد هذا الرجل أن يدع شيئًا من أمرنا إلا خالفنا فيه» رواه مسلم.

وثاني الأمرين: هو إحداث عيد واحتفال لا يعرف في أعياد المسلمين، وما للمسلمين إلا عيدان، عيد فطر، وعيد أضحى، وما عدا ذلك من أعياد للأم واحتفالات، أو أعياد للميلاد أو للبلوغ أو للكهولة أو للشيخوخة، كل ذلك مما أحدث في الدين، وحرّمه علماء الملة.

ومن ذلك الاحتفال بليلة النصف من شعبان، أو تخصيصها بشيء من العبادة، أو صيام يوم النصف منه، كل ذلك منع منه جمهور أهل العلم، ولم يرو في فضلها شيء يصح عن النبي ﷺ، بل كل ما ورد فيها إما ضعيف أو موضوع بيّن ذلك أهلُ الحديث وسماسرته من الحفاظ الأثبات.

فكل احتفال أو عيد لم يدل الشرع عليه فهو بدعة محدثة، ورضي الله عن ابن عباس حين قال: «ما أتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة،

وأماتوا فيه سنة، حتى تحيا البدع وتموت السنن».

وقال عمر بن عبد العزيز يوصي أحد ولاته: «ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة منها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتملق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فقد قَصَرَ قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فضلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم».

اللهم صلى على محمد..

❊ ❊ ❊

خطبة الاستسقاء

الحمد لله الناشر في الخلق فضلَه، الباسط فيهم بالجود يده، فاضت من يديه على عباده النعمة، وكتب على نفسه لعَباده المومنين الرحمة، وسبق عفوه عقابَه، ورحمتُه غضبَه، البر الرحيم الجواد الكريم، لا يضيره الإعطاء والجود، إذ كل معط منتقصٌ سواه، وكل مانع مذموم ما خلاه، هو المنانُ بفوائد النعم، ليس بمَا سئل بأجودَ منه بما لم يُسأل، أمره قضاءٌ وحكمة، ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلمه، ويعفو بحلمه، نحمده على ما يأخذُ وما يعطي، وعلى ما يعافي ويبتلي، لا نقدرُ أن نأخذ إلا ما أعطانا، ولا أن نتقي إلا ما وقانا، نحمده على آلائه، كما نحمده على بلائه.

نستغفره مما أحاط به علمه، وأحصاه في كتابه، علم غير قاصر، وكتابٌ غير مغادر، له الحجةُ علينا، ولا حجةَ لنا عليه، نؤمن به أولاً، ونستهديه قريبًا هاديًا، ونستعينه قادرًا قاهرًا، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الحق، وقوله الحق، نسأله المعافاة في الدين، كما نسأله المعافاة في البدن.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعًا، وبذكره ناطقًا، فأدى أمينًا، ومضى رشيدًا، وخلَّف فينا رايةَ الحق، من تقدمها مرَقَ، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق، شهادتين تصعدان القول، وترفعان العمل، لا يَخفُّ ميزان توضعان فيه، ولا يَرْجُحُ ميزان ترفعان عنه، صلوات الله وسلامه على نبيه وخليله، وخيرته من خلقه، سيد البشر أجمعين، ورسول رب العالمين، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين، وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نستغفر الله، نستغفر الله، نستغفر الله، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارًا، فأرسل السماءعلينا مدرارًا.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله جل وعلا، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، الزموا تقوى الله سبحانه، فلعمر الله هي العز والكرم، وحبُ المرء لدنياه وخُلُّوه من تقواه هو الذُّل والسقم، وليس على عبد تقي نقيصة إذا هو حقق تقوى ربه وإن حاك أو حجم، ولو كانت التقوى تُغلب بالنسب، لما رفع الإسلامُ سلمان فارسٍ، ولما وضع الشركُ الشقي أبا لهب.

إن على العبد ألا يثق بخصلتين، إذ كلتاهما داء، ألا وهما: العافية والغنى، بينما ترى المرء معافىً إذ سقم، وبينما تراه غنيًا إذ افتقر، وليس للغنى والجاه ميزان عند الله، وإنما الفقر والغنى بعد العرض عليه ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾ [الحاقة: ١٨].

مرَّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه على مقبرة في الكوفة، فخاطب أهلها قائلاً: «يا أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، والقبور المظلمة، يا أهل التربة، يا أهل الغربة، يا أهل الوحشة، أنتم لنا فرط سابق، ونحن لكم

تبع لاحق، أما الدور فقد سُكنت، وأما الأزواج فقد نكحت، وأما الأموال فقد قُسمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟، ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى».

ويقول رضي الله عنه: «يا دنيا يا دنيا، إليك عني، أبيَ تَعرّضت، أم إليَّ تشوفت؟. لا حان حينُك، هيهات غري غيري، لا حَاجة لي فيكَ، فقد طلقتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد وطول الطريق وبُعد السفر وعظيم المورد».

هذا هو أمير المؤمنين ـ يا رعاكم الله ـ فأين نحن مما يقول؟ هذا هو أمير المؤمنين يُطلّق الدنيا ثلاثًا لا رجعة فيها، أما علمتم حفظكم الله أنه هو الراوي لحديث النبي ﷺ: «**لعن الله المحلل والمحللَ له**».

أما إنما مثل الدنيا كمثل الحية، ليّن ملمسها، والسم الناقع في جوفها، يهوي إليها الغِرُ الجاهل، ويحذرها ذو اللب العاقل، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

أيها المسلمون.. أيها الصائمون القائمون:

احذروا الدنيا فإنها حلوة خضرة، لا تدوم جدَّتُها، ولا تؤمنُ فجعتُها، لا تعدو إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضاء بها، أن تكون كما قال سبحانه: ﴿**كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ**﴾ [يونس: ٢٤].

لم يكن امرؤ قط منها في جَدْة إلا أعقبته عبرة، ولم يلق في سرائها بطنًا إلا منحته من ضرائها ظهرًا، ولم تُظلّه فيها ديمةُ رخاء إلا هتنت عليه مُزنة بلاء، ومن عاش لم يخل من المصيبة، وقلَّ ما ينفك عَن عجيبةً.

يا طالب الدنيا بدنيا الهمة   أيـن طلبـت الله كان ثمـة

نستغفر الله، نستغفر الله، نستغفر الله، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارًا، فأرسل السماء علينا مدرارًا.

أيها المؤمنون:

الناس في الدنيا على أربعة أصناف:

- صنفٌ لا يمنعه من الفساد والإفساد إلا مهانةُ نفسه وكلالة سلاحه، ومثله لو تولى لسعى في الأرض فسادًا، وأهلك الحرث والنسل.

- وصنف مصلتٌ سيفه ومعلقٌ شرَّه، ومجلبٌ بخيله ورجله، لا يقيلُ في الشر ولا يستقيل، فبئس المتجرُ متجرهُ، ويالله كيف يرى الدنيا لنفسه ثمنًا.

- وصنف يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا، شمر عن ثوبه، وزخرف من نفسه للأمانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلى المعصية ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة: ١٤] في النهار حَمَلَ وديع، وفي الليل ذئب ولص شاهر، ومثل هذا ليس من الخير في مراح ولا مغدى.

- وصنف رابع - يا رعاكم الله - هم رجال غضَ أبصارَهم ذكرُ المرجع، وأراق دموعَهم هولُ المحشر، شيبتهم هود والقارعة، والحاقة والزلزلة، والمرسلاتُ، وإذا الشمس كورت، عُرفوا بالصمت والناس يتكلمون، وبالبكاء والناس يضحكون، وبالنصح والناس يتملقون، وبالصدق والناس يكذبون.

فكونوا كهؤلاء عباد الله، كونوا من أهل الآخرة ولا تكونوا من أهل الدنيا، اتعظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم، وارفضوها ذميمة، فإنها قد رفضت من هو أشغفُ بها منكم، فلله كم من مستدرج بالإحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله أحدًا بمثل الإملاء له، إلا فإن الله يُمهل ولا يهمل، وإنه ليملي

للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فالحذر الحذر، فوالذي نفسي بيده لقد ستر اللهُ أحدنا حتى يظنه قد غفر ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، نستغفر الله، نستغفر الله، نستغفر الله.

أيها المسلمون:

إن من أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه: الإيمانَ به وبرسوله ﷺ، والجهاد في سبيله؛ فإنه ذروة الإسلام، وكلمةَ الإخلاص، فإنها الفطرة، وإقامَ الصلاة فإنها الملة، وإيتاءَ الزكاة فإنها فريضة واجبة، وصومَ شهر رمضان فإنه جُنة من العقاب، وحجَ البيت واعتمارَه فإنهما ينفيان الذنوب، وصلةَ الرحم، فإنها مثراةٌ في المال، ومنسأةٌ في الأجل، وصدقةَ السر، فإنها تكفر الخطيئة، وصنائعَ المعروف، فإنها تقي مصارع السوء والهوان.

ألا فتعلموا القرآن في هذا الشهر المبارك، فإنه أنفعُ الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنه شفاء الصدور والأبدان، وأحسنوا تلاوته، فإنه أنفع القصص، فإن العالم العامل بغير علمه، كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجةُ عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم.

إنه لا مال أعودُ من العقل، ولا وَحدةَ أوحشُ من العُجب، ففروا منه فرار الصحيح من الأجرب، والباري من ذي السقم، وليس هناك أورعُ من الوقوف عند الشبهة، وإن استطعت ألا يكون بينك وبين الله ذو نعمةٍ فافعل، فإنك مدرك قسمك، وآخذ سهمك لا محالة.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينُه، فيلقى الرجل وله إليه حاجة، فيقول له: أنت كيت وكيت، يثني عليه لعله أن يقضي من حاجته شيئًا، فيسخطُ اللهُ عليه، فيرجعُ وما معه من دينه شيء»

أعاذنا الله وإياكم من سوء هذه الحال، ومن حال أهل النار.

يقول حكيم بنُ حزامٍ رضي الله عنه: «بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نسأل الناس شيئًا» رواه مسلم، حتى إن الرجل من الصحابة ليسقط سوطه من على راحلته فينزل فيأخذه لا يسأل أحدًا أن يناوله إياه.

وحاصل الأمر - عباد الله - أن حفظ ما في الوعاء إنما يكون بشد الوكاء، والعين وكاء السه، فإذا نامت العين استطلق الوكاء، فمرارة البأس خير من الطلب إلى الناس، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور، والمرء أحفظ لسره من سر غيره.

أيها المسلمون:

إن نعم الله علينا تترى، وإن أفعالنا للمعاصي تترى، نصل الذنوب إلى الذنوب ثم نرتجي درج الجنان لدى النعيم الخالد، ولقد علمنا حقًا أنه أخرج أبوينا من الجنة بذنب واحد، ووصية بعض السلف: «إذا رأيت ربك يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذْره».

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واحذروا المعاصي والذنوب تسلموا، وعليكم بقبول نصح الناصحين، ووعظ الواعظين، وإياكم أن تكونوا من ذوي الغفلة، لاهين سادرين، يُلقى على الجمع نصح، ولسان حال الكثير منهم يقول: فمضيت ثمة قلت لا يعنيني.

يقول النبي ﷺ: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» رواه أحمد، وقد قال ابن عمر رضي الله عنه: «كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا بوجهه فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها، إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم**

المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم يعمل أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل بأسهم بينهم».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم»، وقال مجاهد رحمه الله: «إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة، وأمسك المطر، تقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم».

يقول الإمام أحمد رحمه الله في مسنده: «وجد في خزائن بني أمية حنطة، الحبة بقدر نواة التمر، وهي في صُرة مكتوب عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل».

نستغفر الله، نستغفر الله، نستغفر الله.

أيها المسلمون ـ يا رعاكم الله ـ:

استمعوا معنا قليلاً إلى عبارات جليلة، فاضت من حَبْر يصف فيه العصر الذي كان يعيشه، في حرقة ولوعة وأسى.

يقول ابن القيم رحمه الله: «لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة، والمحاكمة إليهما ظهر الفساد في ذلك وعمتهم أموره حتى ربا فيها الصغير وهرم عليها الكبير، فاقشعرت الأرض، وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وتكدرت الحياة، وقلت الخيرات من فسق الظلمة، وبكى ضوء النهار، وظلمة الليل من الأفعال الفظيعة، والأعمال القبيحة، وشكى الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش، وغلبة المنكرات والقبائح، قلةُ التوحيد، وفسادُ الرأي، وخفاءُ الحق، وخمولُ الذكر، والوحشةُ بين العبد وبين ربه، ومنعُ إجابة

الدعاء، وقسوة القلب، وحرمانُ العلم، تتولدُ هذه كلها من معصية الله، ومن الغفلة عن ذكره كما يتولد الزرع من الماء، والإحراق عن النار».

يقول أبوجعفر الباقرُ رحمه الله: «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدُهما، فدونكم الآخر فتمسكوا به، أماالأمان الذي رفع فهو رسول الله ﷺ، وأما الأمان الباقي فالاستغفار، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٣].

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من أعطي أربعًا لم يحرم أربعًا: من أعطي الدعاء لم يحرم الإجابة، ومن أعطي التوبة لم يحرم القبول، ومن أعطي الاستغفار لم يحرم المغفرة، ومن أعطي الشكر لم يحرم الزيادة».

اللهم أنت الله لا إله إلا أنت، أنت الغني ونحن الفقراء، أنزل علينا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم اسقنا غيثًا مغثيًا، هنيئًا مريئًا، غدقًا مجللاً، سحًا طبقًا، نافعًا غير ضار، عاجلاً غير آجل، اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم إن بالعباد والبلاد من اللأواء والضنك ما لا نشكوه إلا لك، اللهم أنبت لنا الزرع، وأدر لنا الضرع، واسقنا من بركات السماء سقيا رحمة، لا سقيا هدم ولا بلاء ولا غرق، اللهم لتحيي به البلاد، وتسقي به العباد، ولتجعله بلاغًا للحاضر والباد، اللهم إنا خرجنا إليك من تحت البيوت والدور، وبعد انقطاع البهائم وجدب المراعي، راغبين في رحمتك، وراجين فضل نعمتك، اللهم قد انصاحت جبالنا، واغبرت أرضنا، اللهم فارحم أنين الآنة، وحنين الحانة، اللهم سقيا هنيئة تروي بها القيعان، وتسيل البطان، وتستورق الأشجار، وترخص الأسعار، اللهم إنك تشاهدنا في سرائنا، وتطلع على ضمائرنا،

وتعلم مبلغ بصائرنا، أسرارنا لك مكشوفة، وقلوبنا إليك ملهوفة، إن أوحشتنا الغربة آنسنا ذكرك، وإن صبت علينا المصائب لجأنا إلى الاستجارة بك، علمًا بأن أزمة الأمور بيدك، ومصادرها عن قضائك، إنا عبيدك بنو عبيدك، بنو إمائك، نواصينا بيدك، ماض فينا حكمك، عدلٌ فينا قضاؤك، نسألك اللهم أن تغيثنا من بركاتك ورزقك، وأن تمطر علينا سماءك، وتنبت لنا أرضك، وأن ترفع عنا مقتك وسخطك، وأن تأخذ بقلوبنا إلى مراشدنا، فليس ذلك بنكر من هدايتك، ولا ببدع من كفايتك، نسألك اللهم أن تحملنا على عفوك، ولا تحملنا على عدلك.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، واجعل هذا البلد آمنًا مطمئنًا وسائر بلاد المسلمين، اللهم انصر من نصر الدين، واخذل من خذل عبادك المؤمنين، اللهم فرج هم المهمومين من المسلمين، ونفس كرب المكروبين، واقض الدين عن المدينين، واشف مرضانا ومرضى المسلمين، اللهم آمنا في أوطاننا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع رضاك يارب العالمين، اللهم وفق ولي أمرنا لما تحب وترضى، وخذ بناصيته للبر والتقوى، اللهم أصلح له بطانته يا ذا الجلال والإكرام، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

ألا فاعلموا عباد الله أنه يسن في مثل هذا الموطن أن تقلبوا أرديتكم اقتداءً بفعل نبيكم ﷺ، فقد حول إلى الناس ظهره، واستقبل القبلة، ثم حول رداءه تفاؤلاً بتحويل الحال عما هي عليه من الشدة إلى الرخاء، ونزول الغيث، وادعوا ربكم وأنتم موقنون بالإجابة.

اللهم صلى على محمد..

نستغفر الله، نستغفر الله، نستغفر الله، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفاراً، فأرسل السماء علينا مدراراً، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

* * *

«بين الذكر والنسيان»

الخطبة الأولى

إن الحمد لله، نحمده على ما كان، ونستعينه من أمرنا على ما يكون، ونسأله المعافاة في الدين، كما نسأله المعافاة في الأبدان، إنه لا يضل من هداه، ولا يفتقر من كفاه، له الحمد كله، وإليه يرجع الأمر كله، وبيده الخير كله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بأمره صادعًا، وبذكره ناطقًا، فأدى أمينًا، ومضى رشيدًا وخلَّف فينا راية الحق، من تقدمها مرق، ومن تخلف عنها زهق، ومن لزمها لحق وسبق، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الأتقياءالأوفياء، وعلى الصحابة الأجلاء، والغر النجباء، وعلى من سار على طريقهم واتبع هداهم ما وقب الغاسق ولاح الضياء.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله جل وعلا، والرفض لهذه
ـة لكم وإن لم تحبوا تركها، والمبلية لأجسامكم، وإن كنتم

تحبون تجددها، فما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه؟!، ألا فلا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها ولأوائها، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع، وإن زينتها إلى زوال، وضراءها وبؤسها إلى نفاد.

أيها الناس:

في هذا اليوم المبارك، يودع المسلمون فيه فريضة الحج المباركة، يودعونها وأشواقهم لم تزل بعد، يودعونها ودموعهم في مآقيهم، والغصة في حلوقهم جارحة، يودعون تلك الفريضة التي تُمحى فيها السيئات، والتي كانت بمثابة غيث ترتوي منه القلوب الظامئة، إذ قليل هم أصحاب الأذواق الرفيعة، والأحاسيس المرهفة، الذين تطمئن قلوبهم، وتزكو أرواحهم بتلك الشعائر العظيمة، التي أوضح النبي ﷺ فيها الطريق، غير أن السالكين قلة عند التحقيق، وأهل الادعاء كثر، ألا وإن الركب كثيرة، وربما كان الحاج قليلاً، وليس السابق اليوم من سبقت به دابته، ولكن السابق اليوم من غفر له ذنبه وقبلت توبته، وحطت عنه خطيئته ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ**﴾ [الحج: ٣٤].

يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: «لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، فقال: **مالك يا عمرو**؟، قال: قلتُ: أردت أن أشترط، قال: **تشترط بماذا**؟، قلتُ: أن يُغفر لي. قال: **أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله**؟» رواه مسلم في صحيحه.

حجاج بيت الله الحرام:

ذكر الله المطلق في كل حين وآن يستحب الإكثار منه في أيام التشريق، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يكبرون أيام التشريق فترتج منى تكبيرًا، في السوق وفي الرحال، والصباح والمساء، وأدبار الصلوات.

وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه: «أن ابن عمر كان يكبر أيام منى خلف الصلوات، وعلى فراشه، وفي فسطاطه ومجلسه وممشاه تلك الأيام جميعًا».

وقد صح عن ابن مسعود، وسلمان الفارسي رضي الله عنهما مرفوعًا إلى النبي ﷺ أن صفة التكبير أيام التشريق: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرًا»، وكذا: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر ولله الحمد» رواهما عبد الرزاق وابن أبي شيبة، وقد أحدث الناس في هذه الأزمنة زيادات لم تكن على عهد النبي ﷺ.

ألا وإن الذكر يزداد تأكيدًا إذا قضى الحاج مناسكه، استجابة لما أرشد إليه الباري جل وعلا بقوله: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وهذه الآية ـ عباد الله لا تفيد أن يذكر الحاج آباءهم مع الله، ولكنها تحمل طابع التوجيه إلى الأولى والأجدر، فكأن الآية تشير بمنطوقها إلى استبدال ذكر الله بذكر الآباء؛ بل إنها لتشير بصراحة إلى أن يكونوا أشد ذكرًا لله ﴿**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فذكر الله تعالى هو الذي يرفع العبدَ حقًا، وليس هو التفاخر بالآباء وما سوى ذلك من حطام الدنيا الفانية، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله كمثل الحي والميت**».

ذكر الله - أيها الناس - هو جلاء القلوب وصقالها، وهو دواؤها وشفاؤها إذا غشيها اعتلالها، يقول ابن القيم رحمه الله: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!».

ذكر الله عز وجل باب مفتوح بين العبد وبين ربه، ما لم يغلقه العبد بغفلته، يقول الحسن البصري رحمه الله: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق».

أيها الناس حجاج بيت الله الحرام:

إن الله سبحانه قد أرشد عباده إلى دعائه بعد كثرة ذكره؛ لأنه مظنة الإجابة والقبول، كما أنه قد ذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أمر أخراه، فقال سبحانه: ﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي: من حظ أو نصيب.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف بعرفة فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب وولاد حسن، فلا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا، فأنزل الله فيهم هذه الآية».

ويجيء بعد هؤلاء قوم مؤمنون صادقون، يريدون الحسنة في الدنيا، ولكنهم لا ينسون نصيبهم في الآخرة فهم يقولون: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ٢٠١].

فتلك دعوة جامعة لكل خير، وصارفة لكل شر، وقد روى الإمام أحمد، ومسلم في صحيحه: «أن قتادة سأل أنسًا رضي الله عنهما أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ؟، قال: يقول: **اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة**

وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»، وكان أنس رضي الله عنه إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه.

أيها المسلمون:

إن الحديث عن ذكر الله في الحج ليحدونا بجد وعزم إلى إلقاء الضوء على قضية الذكر والنسيان، إذ هي قضية عقلية ونفسية بالغة الأهمية، لأن معرفة الحق سبحانه، وصدق الاتجاه إليه، والاستقامة على نهجه كله هو الأداء السوي، الذي خُلق الإنسان من أجله، والذي يستطيع المرء من خلال النظر في خلق الزمان والمكان أن يكون على يقظة وانتباه، بسبب التذكر الذي يذوب النسيان أمامه كما يذوب الملح أمام الماء ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا**﴾ [الفرقان: ٦٢].

لاشك أن الناس في واقعهم مختلفو البيئات والأقاليم، والتي لها أثرها البالغ في قضية الذكر والنسيان، فهناك أوساط يُعين واقعها على حدة الذهن ويقظة القلب، من خلال قربها من الله والتزامها بشرعه، عبر محاور متعددة كالإعلام والصحافة والتربية والتعليم، فمتى فهمت رسالتها، وأدت ما أوجب الله عليها من تكاليف شرعية غير مشوبة بكدر، فهي إلى التذكر والتذكير أقرب.

كما أن هناك أوساطًا أخرى تعين على الغفلة والخمول، وبلادة الهمم والسلوك، فهي لا تزيد السقم إلا علة، ولا الطين إلا بلة.

وهناك من أعانه الله على أن يكون ممن تخطى مثل هذه البيئات، فتقوى عزيمته ويحيى قلبه، بعد أن يحل الدعاءُ من نفسه محلاً عظيمًا، لا سيما فيما أوصى به النبي ﷺ معاذ بن جبل حينما قال له: «**يا معاذ إني أحبك في الله، لا تدع أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن**

عبادتك» رواه أحمد والنسائي.

إن من الأشياء المسلمة، والتي لا مراء فيها ولا جدال: أن ثمة أحوالاً تعرض للنفس البشرية، تعرض الغيوم للقمرين، فتكف عنها الضوء، وتكسف الشعاع، فهناك فقر منسي، وغنى مطغي، ومن طغى فقد نسي ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** ﴾ [العلق: ٦، ٧]، إن الفقر المنسي، والغنى المطغي، يجعلان من صاحبهما في دائرة من الهموم والمضايق التي تبدد قواه لهثًا وراء مطالب الحياة الدنيا، والذي حذرنا منه النبي ﷺ بقوله: «**بادروا بالأعمال سبعًا، هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنىً مطغيًا...**» الحديث رواه الترمذي في جامعه.

ولأجل ذا ـ عباد الله ـ جاء الهدي النبوي صريحًا كل الصراحة في دلالته الواضحة على ما يقطع به العبد همه المولد للنسيان والغفلة، حيث يقول النبي ﷺ، فيما رواه الترمذي: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**».

أيها الناس:

مسألة الذكر والنسيان مسألة جد خطيرة، فإن فلاح امرئ ما إنما يكون بمقدار ما يقع له من التذكر، وبقدر ما يكون في قلبه من أنواع المعرفة المشرقة، فإن تطرق إليه النسيان، وطوى له هذه العلوم والمعارف، فلا نهاية له إلا السقوط، ولا ختام إلا الفشل والبوار.

ألا وإن من الناس من يستقبل الحياة بلا وعي ولا ذكر، وليس ثمة أذن تسمع ما تسمع، قوارع الدنيا التي تقرع، وفي أمثال هؤلاء يقول الباري جل وعلا: ﴿ **أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ**

يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

إن كتاب الله جل وعلا هو المنبع الثر، وهو نور القلوب وشفاؤها، يصحي القرائح الميتة، ويذهب الخمول الذي يرين على بعض القلوب ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ألا وإنه لا يعقل البتة أن ينزِّل الله على رسوله الذكر الحكيم وهو يريد للناس أن يشقوا جميعًا، كيف ذلك والله يقول لنبيه ﷺ: ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢ إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ فالله الله في القرآن يا أمة القرآن.

إن الصلوات الخمس التي فرضها الله في اليوم والليلة لهي سويعات يعود الناس بهن إلى ربهم، وينهون بهن عن الفحشاء والمنكر، أو تعود بالناس إلى ربهم، إذا اشتدت عليهم الضوائق، أو تعقدت حبال الأنس والطمأنينة ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، ولقد «كان ﷺ إذا حزبه أمر واشتد عليه لجأ إلى الصلاة» رواه أحمد وأبو داود.

إن الصلوات عند كثير من الناس حركات بدنية فحسب، وليست قلبًا خاشعًا، ولا فكرًا ساجدًا لله، وهذا ليس من الصلاة في شيء، ولا في تأديب النفس، ولا في عظمة الوقوف بين يدي الخالق جل وعلا قبل ذلك، إن الإنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يعيش وحيدًا منفردًا، لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم، بل لابد من الصديق يلاقيه المرء أو يناجيه، أو يشاركه مسرته ويشاطره مساءته، لابد يومًا ما من أن تشتكي إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع لك.

وإن علاقات كثير من الناس في هذا الزمن تقوم لغرض وتقعد لعرض إلا من رحمه الله.

والأمة المسلمة اليوم أحوج ما تكون إلى عصبة الخير التي تتصادق في الله، وتتآصر على تأييد الحق، وتتعاون على البر والتقوى، يقول سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٢٩ـ٣٤].

بالأخوة الصادقة، بالصديق المخلص الوفي، الذي يخشى الله ويتقيه، به وبأمثاله يُذكر الله جل وعلا، فالمرء مع من يخالل ويعاشر، والشيء من معدنه لا يستغرب ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

بالأخوة الصادقة تتكاتف الأيادي، ويكثر الناصحون لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، ومتى اعترت الأخوة هوة أو معرة، فإن التفكك هو النتيجة، ومن ثم لا يجد الناصحون رجع الصدى، بل يشعر المجتمع بالجفوة المثمرة النسيانَ والغفلة، وتكون العقبى بعد ذلك كما قال الباري سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وبعد يا رعاكم الله.. فإن الذكر والنسيان خصمان لا ينفكان، يتعاركان ويتهارشان، والمرء الحازم الذي يدرك العواقب عليه أن يتأمل عاقبة ذلك إيجابًا وسلبًا، ويكفيكم من ذكرى سماعها، فإن الله يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ـ١٢٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، عليه من الله أفضل صلاة وأزكى تسليم.

أما بعد:

فيا أيها الناس.. يظن بعض الحجاج أن زيارة مسجد رسول الله ﷺ، أو زيارة قبره واجبة، أو شرط في الحج، أو مستحبة في أشهر الحج خاصة، وكل هذا لا أساس له من الصحة، فإن زيارة مسجد رسول الله ﷺ مستحبة في أي وقت من الأوقات، وليست مقيدة بالحج.

كما أنه ينبغي على المسلم أن ينوي زيارة مسجده ﷺ لا زيارة قبره؛ لأن شد الرحال على وجه التعبد لا يكون لزيارة القبور، وإنما يكون لزيارة المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ، والمسجد الأقصى، ناهيكم - أيها الحجاج - عن أنه ينبغي لزائر مسجده ﷺ أن يتأدب بالآداب الحسنة إبان إقامته بالمدينة، وأن يحسن الجوار.

وزيارة قبر النبي ﷺ لمن وصل المدينة كغيرها من القبور إنما تشرع في حق الرجال دون النساء؛ لقوله ﷺ: «**لعن الله زوارات القبور من النساء**» رواه أحمد وغيره.

كما لا يجوز لأحد البتة أن يتمسح بحجرته ﷺ أو يقبلها لقوله ﷺ «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» رواه مسلم.

وكذلك ما يفعله بعض الزوار وغيرهم من تحري الدعاء عند قبره ﷺ، فقد جاء عن علي بن الحسين (زين العابدين) رحمه الله أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه عن ذلك وقال: «ألا أحدثكم حديثًا سمعته عن أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: **لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**» رواه أبو يعلى وغيره.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عقب هذا الحديث: «فانظر إلى هذه السنة، كيف أن مخرجها من أهل المدينة، ومن أهل بيت النبي ﷺ الذين لهم من رسول الله ﷺ قربُ النسب وقربُ الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط».

ويقول رحمه الله: «ولهذا لما أدخلت الحجرة في مسجده المفضل في خلافة الوليد بن عبد الملك بنوا عليها حائطًا وسنموه وحرفوه، لئلا يصلي أحد إلى قبره؛ بل ولا يمكن أحد من الدخول إلى حجرته بعد أن بنيت الحجرة، وقبل ذلك ما كانوا يمكنون أحدًا من الدخول إلى حجرته ﷺ ليدعو عندها، ولا يصلي عندها، فإن من كان قبله من الأنبياء إذا ابتُدع بعده بدعة بعث الله نبيًا ينهى عنها، وهو ﷺ خاتم الأنبياء، لا نبي بعده، فعصم الله أمته أن تجتمع على ضلالة، وعصم قبر نبيه ﷺ أن يتخذ وثنًا، فإن ذلك والعياذ بالله لو فعل لم يكن بعده نبي ينهى عن ذلك، وذلك كله استجابة لدعائه ﷺ فيما رواه أحمد أن النبي ﷺ قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»» انتهى كلامه رحمه الله.

كما أنه يسن لزائر المدينة - عباد الله - أن يزور قبور الشهداء وغيرهم لتذكر الموت، وكذا تسن زيارة مسجد قباء، لأن من زاره وصلى فيه كان له

كعمرة، كما صح الخبر بذلك عند أحمد والنسائي، وثبت عند مسلم في صحيحه «أنه ﷺ كان يأتي قباء كل سبت».

وما عدا هذين المسجدين، فلا تسن زيارتها؛ بل إن من ظن أن لغيرهما من مساجد المدينة فضلاً فقد أخطأ وخالف السنة، ووقع في ضرب من ضروب البدع كزيارة المساجد السبعة بالمدينة، حيث يظن البعض أنها من مكملات زيارة مسجد رسول الله ﷺ، والواقع ـ عباد الله ـ أن زيارتها من الأمور المحدثة، التي ينبغي إنكارها والتنبيه إليها.

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، وتقبل من الحجاج حجهم، وأعادهم إلى ديارهم سالمين غانمين

اللهم صلى على محمد..

* * *

«خواطر مع الحج»

الخطبة الأولى

الحمد لله حمد الشاكرين، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، سبحانه جعل في تعاقب الليل والنهار عبرةً لمن ادكر أو تذكر، يداول الأيام بين الناس ليبلوهم أيهم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، وخيرته من خلقه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، دعا إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه، فاكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى آله الأخيار، والأتقياء الأبرار، الذين استجابوا له، وأحيوا سنته، ومهدوا لمن بعدهم منهاجه وشرعته، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله جل وعلا، اتقوه في السر والعلن، في الخلوة والجلوة، اعبدوا ربكم واسجدوا له، واركعوا مع

الراكعين، وافعلوا الخير وجاهدوا في الله حق جهاده لعلكم تفلحون.

أيها الناس.. حجاج بيت الله الحرام:

بعد ساعات معدودة من ساعات العمر، يلوح في السماء هلال ذي الحجة، الوليد لذلك التو، يلوح ذلك الوليد في السماء، ليعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أن خالقهم جل شأنه قد آذنهم بشهر له في مجتمعهم تأثير، وفي نفوسهم تأديب، وفي مشاعرهم إيقاظ وتنبيه، يلوح الهلال في السماء، ليوقنوا أن فضل الله عليهم متواصل، وأن مواسم النفحات والغفران لا تزال متواليةً لمن وفقه الله لاغتنامها، إذ لا يمضي من عمر المؤمن ساعةٌ من الساعات إلا ولله فيها عليه وظيفة من وظائف الطاعات والقربات، إن هو أحسن القصد، فيغدو ويروح في خمائلها، وإلا كان مضيعًا يُدهش من حاله، أو خاسرًا يتعوذ بالله من مآله، حيث عمي عن الهدف، وحاد عن الغاية، وخالف سيرة الناجين من أولياء الله الصالحين.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «ما ظننت عمر بن عبد العزيز خطى خطوة إلا وله فيها نية»، وقبل ذلك يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي».

أيها المسلمون:

الحديث عن الحج ومآثره مطلب تشرئب له نفوس الحجيج المؤمنة، وتمتد له أعناق المتقين من عباد الله، ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أو يحدوهم الشوق إلى أن يجتمعوا للإيمان ساعة فيقولوا: سمعنا وأطعنا، ليكون خيرًا لهم وأقوم عند الله.

ومن هنا يظهر البون شاسعًا بين العاصي والمطيع، فالمطيع عرف خالقه فعبده حق عبادته، والعاصي مكفوف البصيرة، تائه عن ولي نعمته،

تستهويه الشياطين في الأرض حيران.

الحج ـ عباد الله ـ قصد بيت الله الحرام لأداء النسك على صفة مخصوصة بينها الشارع الحكيم، ألا وإن هذا البيت الحرام الذي رفع قواعده إبراهيمُ خليل الرحمن وابنه إسماعيلُ عليهما السلام، لم يبن في الحقيقة إلا بالتوحيد، ومن أجل التوحيد، ولأهل التوحيد، تتعاقب الأجيال على حجه، ويتنافس المسلمون في بلوغ رحابه ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [إبراهيم: ٣٥: ٣٦]، ﴿ **وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** ﴾ [الحج: ٢٦].

الحج في الإسلام ـ عباد الله ـ أمارة وحكمة تدعو إلى التوحيد، فاجتماع الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ليوحي إليهم أنه ينبغي للمسلم ألا يعبد إلا الله، في خوفه ورجائه، وذبحه ونذره، ورغبته ورهبته، فالله جل وعلا إنما بعث محمداً ﷺ بالتوحيد الخالص، وتحريم كل صور الشرك وضروبه، ومنع كل مشرك من دخول المسجد الحرام ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٢٨].

بعث النبي ﷺ سنة تسع من الهجرة من ينادي في الحج: «**ألا يطوف بالبيت عريان، وألا يحج بعد العام مشرك**» رواه البخاري ومسلم.

ألا فليتق الله أولئك المفرطون المضيعون، الواقعون في براثن الشرك بالله في ألوهيته أو ربوبيته، أو الملحدون في أسمائه وصفاته ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا**

شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : ٤٠].

ألا فاتق الله يا من ترجو قبة، أو تتوسل بوثن، أو أنت يا من تطوف بقبر، أو تمسَّح بعتبة أو باب، أو أنت يا من تُعلق تميمةً أو ودعةً أو نابًا، رجاء نفعٍ أو دفع ضر، فإن الله جل وعلا هو النافع، وهو يدفع ما بالإنسان من ضر ومصاب ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣].

إن الطائف الموحد ليشعر من أعماق قلبه أن ما دون الله هباء؛ بل ويستحيل عنده عقلاً أن يُغلب الله على أمره، أو أن يُقطع شيء دونه، إذ التعلق بغير الله عجز، والتطلع إلى سواه ضلال وحمق ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣].

لقد قصر فئام من الناس مع التوحيد فصادموا المنقول وخالفوا المعقول، فانحازوا إلى أصحاب القبور، وتضرعوا أمام أعتابهم؛ بل لقد كثر مروجوها، والداعون إليها؛ بل لقد صُوِّر بعضها عبر إنشاد القصائد والمدائح الطافحة بالاستغاثات والنداءات التي لا تصلح إلا لفاطر الأرض والسماوات.

لقد قصر جمع من الناس مع التوحيد، فافتتن بعضهم بالتمائم والحروز، يعلقها عليه وعلى عياله، بدعوى دفع الشر عنهم، أو جلب الخير لهم، أو صرف العين وشبهها.

روى الإمام أحمد بسنده أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال: «**ما هذا؟**»، قال: من الواهنة، فقال: **انزعْها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا**»، وفي المسند أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**»، وفي رواية: «**من تعلق تميمة فقد**

أشرك».

نعم ـ أيها المسلمون ـ لقد قصر فئام من الناس مع التوحيد فجاروا على الخالق جل وعلا، فيما هو من خصائصه سبحانه، فادعوا علم ما لم يعلموا، وخاضوا في أمور الغيب التي لا يعلمها إلا هو، وذلك من خلال الشعوذة والكهانة، أو ما يسمى مجالس تحضير الأرواح، أو قراءة الكف والفنجان، أو الخوض فيما يتعلق بمستقبل الأبراج وقراءتها، أو نحو ذلك من سيل الأوهام الجارف، والخزعبلات المقيتة ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨]، ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤١ـ٤٣].

إن التوحيد الخالص هو أفضل طلبةً، وأعظم رغبةً، وأعلى رتبةً، يصير الحقير شريفًا، والوضيع غطريفًا، يطوِّل القصير، ويعلي النازل، ما شيد ملك إلا على دعائمه، ولا زال إلا على طواسمه، ما عزت دولة إلا بانتشاره وحمايته والدعوة إليه، ولا زالت إلا باندثاره وخذلان أهله، بل ويا ويح من تعلق بغير الله، أو رجا غيره، شرب الموحدون صفوًا، وشرب هو كدرًا آسنًا، دعوا همُ ربًا واحدًا، ودعا هو ألف رب ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩: ٤٠].

أيها الناس.. حجاج بيت الله الحرام:

في الحج إلى الكعبة المشرفة تتجلى نعمة الأمن وحكمة الأمان، من خلال النهج الذي شرعه الله في عرصات مكة والحرم، وذلك متمثل في

حقن الدماء، وإلقاء السلاح، والأمن على الأرواح والممتلكات واللقطة والأعراض، بل وحتى من القول البذيء، واللفظ الفاحش ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ناهيكم - يا رعاكم الله - عن أمن الطير والوحش وسائر الصيود.

إن العبد المسلم لفي حاجة ماسة إلى أن يتصور هذه النعمة، وإن المجتمعات طرًا على اختلاف أقاليمها ليست في غنىً عن الأمن، الذي هو ماس بهم، عظيم الوقع في نفوسهم، متعلق بحرصهم على ذواتهم وأرواحهم، في ظل الأمن والأمان، تحلو العبادة، ويصير النوم سباتًا، والطعام هنيئًا، والشراب مريئًا.

الأمن والأمان - عباد الله - عماد كل جهد تنموي، وهدفٌ مرتقب لكل المجتمعات وإن اختلفت مشاربها، فالمجتمع إذا آمن أمن، وإذا أمن نما، والثمرة الحاصلة أمن وإيمان ونماء، فلا أمن بلا إيمان، ولا نمو بغير ضمانات ضد الهدم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وأظلم الظلم - عباد الله - هو الشرك بالله، فلا يجتمع إذنْ ظلم وأمن، ظلم النفس، وظلم الهوى، وظلم الحجارة، وظلم الدساتير والأحبار والرهبان، ومتى بقيت من ذلك بقية فالله أغنى الشركاء عن الشرك، وهو لا يرضى بمزاحمة صنم الظلم، قال سهل بن عبد الله: «حرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكرهه الله».

إن الأمن والأمان المنبثقين من تطبيق شرع الله على وجه الأرض ليتيح لقلب المسلم النير في كل قطر ومصر، أن يعبد الله في هدوء واستقامة، بل قد يتغير به مجرى تأريخ المجتمع بأسره، بله حياة فرد من الأفراد، يقول

المصطفى ﷺ فيما رواه الترمذي في جامعه: «**من أصبح آمنًا في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**».

أيها المسلمون:

في الحج إلى بيت الله الحرام تتجلى صورة عظمى، وسمة جلى، هي جزء أساس لا يتجزأ في صحة العمل وقبوله بعد إخلاصه للباري جل وعلا، تلكم هي المتابعة لما كان عليه النبي ﷺ، ووجه ذلك هو أن مناسك الحج شرعت على هيئة واجبات وأركان، وسنن في الأقوال والأعمال، ندب إليها المصطفى ﷺ بفعله، متبعًا ذلك بقوله: «**خذوا عني مناسككم**».

والطريق الذي رسمه النبي ﷺ في الحج وغيره من أمور الدين لا هدي أحسنُ من هديه فيه، ولا طريق أقومُ من طريقه، وهيهات هيهات أن يأتي الخلف في أعقاب الزمن بخير مما كان عليه النبي ﷺ والسلف الصالح من عصور النور.

وإن من غربة الدين أن تلتصق به المحدثات، ألا وإن البدع المحدثة فيها مع سوء الظن بصاحب الرسالة تشويه لجمال الدين، وطمس لمعالم السنن، وحيلولة بين الناس وبين دينهم الصحيح، والحكم الفصل في ذلك هو الوقوف عند السنن، ورد الأمور إلى حكم الله وحكم رسوله ﷺ ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يقول سفيان الثوري رحمه الله: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]».

البدعة - عباد الله - هي ما أحدث في الدين مما لا أصل له في الشريعة يدل

عليه، وهي تؤخذ في الغالب تقليداً لشيخ معظم أو والد محترم، أو مجتمع تقدس عاداته، أو أفكار تستحسن، أو مبادئ تستورد، كما أن البدع في الوقت نفسه سريعة الانتشار، تنجم كقرون المعزى، تستلفت أنظار الدهماء فيعمى دونها الذين لا يبصرون، ويصم عنها الذين هم عن السمع معزولون، وجماع النهي عن ذلك كله ما حدّث به الصادق المصدوق ﷺ بقوله: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**» رواه الشيخان، وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**».

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واحذروا البدع صغيرها وكبيرها، واعلموا أن من ابتدع بدعة في الإسلام فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ [النحل: ٢٥].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لقدره وشأنه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله عبد الله حق عبادته، ودعا إلى رضوانه.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، ثم كونوا على علم أنكم قاب قوسين أو أدنى من حلول شهر مبارك، الناس فيه صنفان: إما قاصدٌ بيتَ الله الحرام حاجًا أو معتمرًا، يتعرض لنفحات خالقه ومولاه في عرصات المناسك المباركة، وإما قاعد حلس أرضه، لم يقدر له بلوغ رحاب البيت العتيق، إما لغرض أو لمرض، لن يكونا مانعين بإذن الله من أن يتلقى عشر ذي الحجة المباركة، فيعمل فيها أعمالاً هي أفضل من الجهاد في سبيل الله.

فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**ما من أيام هي أفضل، العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام** - يعني أيام عشر ذي الحجة -. فقالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟!، قال: **ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله، ولم يرجع من ذلك بشيء**».

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن عشر ذي الحجة هي المقصودة بقول الباري جل شأنه: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «وبالجملة فهذه العشر قد قيل إنها أفضل أيام السنة كما نطق بذلك الحديث، وفضله كثير على فضل عشر رمضان

الأخير، لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك من صيام وصدقة وغيرها، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه».

والحاصل - عباد الله - أن النصوص دلت بمنطوقها ومفهومها على أن كل عمل صالح يقع في هذه الأيام فهو أحب إلى الله تعالى من العمل نفسه إذا وقع في غيرها.

كما أن الأعمال في هذه العشر تتنوع إلى الصوم والصدقة، والتوبة النصوح، والإكثار من التسبيح والتحميد والتهليل، كما أن فيها الأضحية والحج، يقول المصطفى ﷺ: «**ما من أيام أعظم عند الله ولا أحبُّ إليه العملُ فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**» رواه أحمد.

وقد ثبت عند أبي داود، والنسائي: «أن النبي ﷺ كان يصوم تسع ذي الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر».

كما أن السنة قد دلت - يا رعاكم الله - على أن من أراد أن يضحي، وقد دخلت عليه العشر، فلا يأخذ من شعره أو أظفاره أو بشرته شيئًا حتى يضحي، لورود الخبر بذلك عن الصادق المصدوق ﷺ عند مسلم في صحيحه.

وثمة أمر جليل ينبغي التنبيه إليه، ألا وهو ما يفعله البعض ممن ابتلوا بحلق لحاهم، تراهم يجتنبون الحلق إذا دخلت عشر ذي الحجة، فلا يأخذون منها شيئًا، ولو سئل أحدهم: لم فعل ذلك؟، قال: أنا أريد أن أضحي، والنبي ﷺ نهى عن أخذ شيء من الشعر حتى يضحي، فيالله العجب، إن النبي ﷺ الذي نهى عن أخذ شيء من الشعر في هذه المدة الوجيزة هو الذي نهى في الوقت ذاته عن أخذ شيء من اللحية طيلة العمر، لما ثبت في

الصحيحين أنه ﷺ قال: «خالفوا المشركين، وفروا اللحى، وحفوا الشوارب»، لكن بعض ضعاف النفوس يسهل عليهم تنفيذ أمره ﷺ فيما يتعلق بالأضحية؛ لأنها أيام قلائل، أما أمره بإعفائها مطلقًا، فهو ثقيل على كسلان وذي ملالة، أما على الحريصين فهو يسير ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

اللهم صل على محمد..

* * *

«الباقيات الصالحات»

الخطبة الأولى

الحمد لله على تقديره، وحسن ما صرف من أموره، نحمده سبحانه على حسن خلقه وتصويره، وعلى إعطائه ومنعه، يخير للعبد وإن لم يشكره، ويستر الجهل على من يظهره، خوف من يجهل من عقابه، وأطمع العامل في ثوابه، جل شأنه، لا يبلغ مدحتَه القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير، بعثه الله رحمة للعالمين، ومنةً للإنس والجن، برًا حريصًا، بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا، عليه من الله أزكى صلاة وأتم تسليم، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحابته الغر الميامين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس: إنه لا أحوجَ للمرء المسلم، ولا أبلغَ في أن يُذكر به ويُوصى، من تقوى الله سبحانه، فإنها الزمام، وبها القوام، فتمسكوا

رحمكم الله بوثائقها، واعتصموا بحقائقها، تأل بكم إلى أكنان الدعة، وأوطان السعة، ومنازل العز والرفعة، في يوم تشخص فيه الأبصار، وينفخ فيه في الصور، فتُدك الشم الشوامخ، والصمُ الرواسخ، فيصير صلدها سرابًا رقرقًا، ومقرها قاعًا صفصفًا، ألا كيف تتقون إن كفرتم يومًا يجعل الولدان شيبًا، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، يوم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا.

عباد الله:

ثم أمر مقرر معلوم، لا إخاله خافيًا على كل من يحمل مع روحه عقلاً صحيحًا، وعلمًا صريحًا، وهو أن لكل بداية نهاية، وأن البزوغ يعقبه الأفول، وآحاد العبادات من فرائض وسنن لها أوقات تحد للبداية والنهاية.

بل إن طاقات البشر البدنية والنفسية بلا استثناء قد تقوى حينًا من الدهر، فتقوى بقوتها العبادة، كما أنها قد تضعف أحيانًا، فتضعف بضعفها العبادة، ما خلا أمرًا واحدًا، لا تُعيقه العوائق، يستوي فيه الشرخ والشيخ، والصحيح والسقيم، والقادر والعاجز، والقائم والقاعد، بل والمستلقي على ظهره لا يحتاج إلى انتهاض قوى ولا استجماع نشاط، أتدرون ما ذاك عباد الله؟، إنه ذكر الله تعالى، ذكر الله الذي لا يستساغ عذر منقطع عنه، كيف لا؟! وقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال له: يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به؟، قال: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**» رواه الترمذي وابن ماجه.

ذكر الله - أيها المسلمون - أمرَ اللهُ جل وعلا به الحجاج بعد انقضاء مناسكهم أن يلهجوا به مع الإكثار ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وهذه الآية - عباد الله - لا تفيد

بمنطوقها ولا مفهومها أن يذكر المسلمون آبائهم مع الله، كلا، ولكنها تحمل طابع التوجيه إلى الواجب واللازم، وهو استبدال ذكر الله بذكر الآباء، بل إنها تؤكد على المسلمين أن يكونوا أشد ذكرًا لله، ولا غرو في ذلك، إذ المؤمنون هم أشد حبًا لله، وذكر الله تعالى هو الذي يرفع العبد حقًا، وليس هو التفاخر بالآباء، وما سوى ذلك من حطام الدنيا الفانية.

وإن في الأمر بالذكر عند انقضاء النسك معنىً جليًا، وهو أن سائر العبادات تنقضي ويفرغ منها، وذكر الله باق لا ينقضي ولا يفرغ منه، فالمؤمن الصادق يعيش على ذكر الله ويموت عليه، وعليه يبعث، فما طابت الدنيا إلا بذكره سبحانه، يقول ابن القيم رحمه الله: سمعت شيخ الإسلام ابنَ تيمية قدس الله روحه يقول: الذكر يطيب للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء؟!.

أيها المسلمون:

يقول الباري جل شأنه: ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا** ﴾ [الكهف: ٤٦]، ويقول سبحانه: ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا** ﴾ [مريم: ٧٦].

هاتان الآيتان قال عنهما جمهور من المفسرين: الباقيات الصالحات هن الكلمات المأثور فضلها، وهنَّ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

روى الحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خذوا جُنتكم**، قلنا: يا رسول الله من عدو قد حضر؟، قال: **لا، جُنتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مُنجيات ومقدِّمات، وهن الباقيات الصالحات**»، ومعنى كونها باقيات صالحات: أي إنها من حرث الآخرة، وأن ثوابها باق لها.

إننا ـ أيها المسلمون ـ لفي حاجة داعية إلى تحصيل الباقيات الصالحات، إن في المسلمين من الضعف والخواء، والضيق والوحشة، وكثرة الهذيان، واشتغال اللسان بما لا طائل من ورائه، ما يحتاجون معه إلى استشعار الباقيات الصالحات.

إلا إن أحدنا ليمدنَّ عينيه إلى زهرة الحياة الدنيا، بل إن أحدنا لَيُرى فيه من الحرص على مسكنه وعلى ما يزينه به من غراس جميل وخضرة خلابة هي من سعادة الناظر للدنيا ما يؤكد عليه أن يفقه الباقيات الصالحات.

تمعنّ أيها المرء بكم تشتري الفسائل، أو أطايب الشجر، وكم يستهويك غرسه أوجناه، لله كم تزاود أو تماكس في بيعه وشرائه، ألا تشرئب إلى من يدلك على ما هو خير لك من ذلك كله وأرخص منه؟، بل ولربما عدّك العقلاء من الناس مفرطًا مفلسًا إن لم تتعجل بشرائه أوغراسه، لأن الوقت محدود، والفرصة سانحة، والعذر ليس ذا بال، إن شئت أيها المرء فاسمع الآتي: يقول أبو هريرة رضي الله عنه: مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا أغرس غراسًا، فقال: **يا أبا هريرة ما الذي تغرس؟**، قلتُ: غراسًا لي، قال: **أَلا أدلك على غراس خير لك من هذا؟**، قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: **سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة**»، رواه ابن ماجه.

وروى مسلم، والترمذي وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «**لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبةُ الماء، وأنها قيعان** ـ أي مستوية ـ **وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**».

وقال ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه: «**لأن أقول: سبحان الله، والحمد**

لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر أحبُ إلي مما طلعت عليه الشمس»، وفي رواية: «**أربعٌ أفضل الكلام، لا يضرك بأيهن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**».

تلكم - أيها المسلمون - فضائل هذه الكلمات في الجملة، ناهيكم عن كون الإكثار منها سببًا في غفران الذنوب ومحو الخطايا، وما أحوجنا إلى مثل ذلك، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «**عليك بسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها**»، رواه ابن ماجه.

أضيفوا إلى ذلك - أيها المسلمون - أن ذكرها قد يكون سببًا في إجابة الدعاء، أو قبول الصلاة، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «**من تعار من الليل - أي استيقظ - فقال حين يستيقظ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم دعا استجيب له، فإن قام فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته**» رواه البخاري وغيره.

أيها المسلمون:

تلكم الكلمات الأربع، على قلة عددها، ويُسر آدائها، إلا أنها كلمات عظيمة المعنى، وواسعة الأثر، قد يوجد في الناس من يرددها، وربما يكثر منها، ولكنه في منأى عن فقه معناها، أو استخلاص لوازمها، حتى يصبح القلب بسبب ذلك بعيدًا عن استشعار جلال الله وعظمته، وقدره حق قدره، ولا جرم فإن ذكر الله عز وجل كلام تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله.

بيد أن الناس مما ألفوا منه، وما جهلوا من معناه، لا يرددونه إلا كما

يرددون كلامًا تقليديًا، لا يعدو كونه تمتمات يلوك بها المرء لسانه، قد طغت على معالمه بسبب الإلفة، والاعتياد المتجرد عن الامتثال لله سبحانه، ولذا فإن من المناسب جدًا أن نشير على عجالة واقتضاب شديدين إلى معاني تلك الكلمات الأربع.

فأولهن: سبحان الله: والتي معناها: التنزيه والإعلاء، والتقديس للباري جل وعلا، من كل ما لا يليق بقدره، فيسبح الله عن كل شرك أو عبودية لغيره، ويُسبح الله عن أن يوصف بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال.

وتسبيح الله - أيها المسلمون - ليس مقتصراً على جانب التنزيه فحسب، وإنما هو مرتبط كذلك ارتباطًا وثيقًا بجانب الخشية من الله، كأن المرء يراه أو أنه إن لم يكن يراه فإن ربه يراه، فلا ينبغي أن يصدر من العبد ما لا يرضي به ربه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وأن المرء المسلم إذا نأى بنفسه عن أن يقع في زلة أو هفوة بسبب تسبيحه لله، فهو ممن أدى حق الخشية والتنزيه والإعلاء، ألا تسمعون قول الباري جل وعلا يصف حادث الإفك المفترى على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ﴿**وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ**﴾ [النور: ١٦].

إن المرء المسلم ليربأ بنفسه عن أن يكون مقوالاً مهذارًا لكل ما يرد إليه، لا تحكمه أناة، ولا يردعه خشية، ولا يكفكفه عقل، ويكفيه كذبًا أن يحدث بكل ما سمع، وإن الذين يرمون الأبرياء بما ليس فيهم تحقيقًا لشهوات دنية، ومآرب غير نقية، ما قدروا الله حق قدره، وما نزهوه وسبحوه كما يليق بجلاله.

وقولوا مثل ذلك - عباد الله - في الظن بالله جل وعلا، إذ على المرء أن

يعلم علم اليقين أن الله خلق كل شيء فقدره تقديراً، وأن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وتستوعب أجلها، وشقية أو سعيدة، وألا يبالي المرء أعطاه الناس أو منعوه، فإنما هم رسل الله في الرزق، يعطون من قدر الله أن يعطوه، ويمنعون من قدر الله أن يمنعوه، وما على المرء المسلم إلا أن يتوكل على الله كما تتوكل الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وليس بخاف عليكم أيها المسلمون ما حكاه الله عن أصحاب الجنة في سورة نون ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٢٣-٢٩].

الكلمة الثانية - رحمكم الله - هي كلمة: الحمد لله، إنها كلمة لها شعبتان من المعاني:

شعبة تتصل بتمجيد الله، وكشف الران والجهل الذي يغشى القلوب، فلا تعرف حق الله من المدح والثناء.

والحمد في هذه الشعبة يذكر في السراء والضراء، فالله جل شأنه يحمد في البلاء كما يحمد على النعماء، ويدل على ذلك أن الله جل شأنه إذا أودع أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار تأتي عبارة الحمد من الملائكة على هذا القضاء بين فريق الجنة، وفريق السعير، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

يقول النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد

عبدي؟، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟، فيقولون : حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد»، رواه أحمد والترمذي.

وأما شعبة الحمد الثانية فهي: معنى الشكر في مقابل السراء والنعم، التي تنهمر على العباد صباح مساء، دون أن تحصى أو تعد، بيد أن كثيرًا من الناس يعمهم قوله سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

يقول النبي ﷺ منبهًا إلى نعمة الشكر المنسية وفضلها المجحود فيما رواه أبو داود، وابن حبان أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر، فقد أدى شكر ذلك اليوم».

اللهم اجعلنا شاكرين لنعمك، مثنين بها عليك قابليها، وأتمها علينا يا ذا الجلال والإكرام.

بارك الله لي ولكم..

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والشكر له على كرمه ومنته، وتتابع الهبات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، شهادتين نلقى الله بهما عند الممات، وأصلي وأسلم على أشرف خلقه وآله وصحبه.

أما بعد:

فثالثة الكلمات الأربع - عباد الله - هي كلمة التوحيد والإخلاص: لا إله إلا الله، والتي هي باب الإسلام ومدخله، مع ضميمتها الأخرى، وهي محمد رسول الله، إذ لا يتم إيمان عبد إلا بتحقيق كلمة التوحيد، بمعنى أن تجمع نفيًا وإثباتًا، نفيًا لكل ما يعبد من دون الله، وإثباتًا لعبادة الله وحده.

ومعنى الكلمة - عباد الله - أنه لا معبود بحق إلا الله، إذ إن ما سواه من معبودات أو متبوعات لا تستحق العبادة، بل هي كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ**﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم الله دمه وماله، وحسابه على الله عز وجل**».

فالتوحيد والشرك إذًا نقيضان، لا يجتمعان في قلب امرئ مسلم البتة، ومن أشرك بالله شيئًا فقد حرم الله عليه الجنة، ومأواه النار.

غير أنه قد يقول قائل: أين نحن من عبادة الأصنام والأوثان، لانعلم أحدًا يعبد حجرًا أو يصلي إلى صنم؟!.

فالجواب: أن من ظن أن الشرك بالله لا يكون إلا بذلك فقد أخطأ الطريق، لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، والإيمان بالله والكفر بالطاغوت هو معنى لا إله إلا الله.

والطاغوت قال عنه ابن القيم رحمه الله: إنه ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه من دون الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما ليس طاعة لله ورسوله.

ومن هنا أنزل النبي ﷺ الإشكال الوارد على عدي بن حاتم رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، قال عدي: يا رسول الله لسنا نعبدهم، قال: «**أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟**» قال: بلى، قال النبي ﷺ: «**فتلك عبادتهم**» رواه الترمذي والبيهقي.

أما رابع الكلمات - يا رعاكم الله - فهي كلمة التكبير: الله أكبر، التي هي رأس التكبير وعماده، وهي أول ما كلف به الرسول ﷺ حين أمر بالإنذار ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١ : ٣].

إنها كلمة عظيمة تحيي موات الأرض الهامدة، لصوتها هدير كهدير البحر المتلاطم، أو هي أشد وقعًا ولا غرو - أيها المسلمون - فإن شئتم فاسمعوا قول النبي ﷺ عن فتح القسطنطينية في آخر الزمان، يقول ﷺ: «**فإذا جاءوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحد جانبيها، ثم يقول الثانية: لا إله إلا الله، والله أكبر، فيسقط جانبُها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر، فيفرَّج لهم**

فيدخلوها فيغنموا . . .» الحديث، رواه مسلم .

فيا لله ما أعظم هذه الكلمة وما أبلغها، إنها كلمة ينبغي أن تدوي في سمع كل فاسق مفسد، ليرتجف فؤاده، ويهتز كيانه، وينبغي أن تدوي في سمع كل من يهم بمعصية أو إثم ليقشعر ويرتدع، وينبغي أن تدوي في سمع كل ظالم معتد متكبر، ليتذكر إن كان من أهل الذكرى أن هناك إلهًا أقوى منه، وأكبر من حيلته ومكره واستخفافه، فالله أكبر الله أكبر كبيرًا .

اللهم صل على محمد . .

* * *

القلق والاكتئاب

الخطبة الأولى

الحمد لله ولي الصالحين ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ، خلق فسوى ، وقدر فهدى ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الغفور الرحيم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخليله وخيرته من خلقه ، بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ، فعليه من الله أزكى صلاة ، وأتم تسليم ، وعلى آله وأصحابه ، ومن سار على ملته واقتفى أثره إلى يوم الدين .

أما بعد:

فبادئ ذي بدء أوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه في السر والعلن ، والمنشط والمكره ، فما خاب من اتقاه ، ولا أفلح من قلاه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو

﴿الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أيها الناس:

البال الرخي، والنفس الرضية، والصدر المنشرح، مطالب جُلَّى، تصبوا إليها أفئدة بني آدم، وتروم نوالها كل نفس لم تكتنفها دواعي الخذلان، أو مكابرة العاجز وبطر المستنكف، والمرء في هذه الحياة ما دام ذا روح يقلبها، فهو يعيش على أمر قد قدر، وحينما يشب عن الطوق بعد غضارة الصبا ينهج في البحث عن الهناء لحياته، نهجًا مستتبًا، يرجُّ نفسه رجًا شديداً، يظن أنه بين الرياحين السرمدية، يتهادى في دروبها كيفما يحلو له، لا يُذعره شيء حتى يبلغ نهايته المكتوبة، دون أن يفكر هُنيهة، أن من عاش لم يخل من المصيبة، وقل ما ينفك عن عجيبة، فيشاء الله غير ما يشاء هو، ويقدر غير ما قدر هو، وتخيب ظنون المرء في جُلِّ ما كان يؤمل، وتنقلب آحادها رأسًا على عقب، متخطفًا عن السير، إما في أوائله، أو أواسطه، بله بلوغ نهايته المشرئب إليها، ثم يكون ما يكون، ولقد صدق من قال:

ما عند يومي ثقة لي بغد لابد من دار خلود الأبد

صح عند مسلم وغيره، أن النبي ﷺ قال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**»، لقد صدق رسول الله بأبي هو وأمي ﷺ، نعم لقد صدق، فأين هم الذواقون لطعم الإيمان؟، وأين من الذواقين من يظهر أثر الذوق لهذا الطعم في نفسه وروحه وسلوكه، بل وحياته كلها؟.

ألا إن حَمَلَةَ الأدوية التي ينفعون بها، ولا ينتفعون منها كثرة كاثرة على هذه البسيطة، وهم كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ، والماء خلف ظهورها

محمول، ورب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

والحق ـ عباد الله ـ أن الإيمان والسعادة لا يضيرهما شيء البتة، إذا كان يُعد حملتها ومنسوبوها أول الناس خروجًا عليها ونأيًا عنها، وإلا فأين الذي لم يعد منهم في حياته فاقد السعادة، ملتاثًا بلوعة القلق والاكتئاب، أين صاحب المنصب والشرف، الذي لم يعد قلقًا في أوج ملكه وسلطانه، يتوجس فقده كل لحظة، عريًا من خلاله عن معاني الإحساس بطعمه، أو استشمام رائحته المركبة.

وأين الأبوان اللذان لم يعد أحدهما يخشى على أولاده القوارع المدلهمات، في كسوة هذا، وإعفاف تلك، وتوظيف هذه، وتزويج ذلك، بل أين وأين وأين؟، إنه عصر موحش على كثرة مؤنسيه، مقلق على كثرة مهرجيه ومروجيه، إنه مليء بكل مسببات القلق لفاقدي الهدف، ومعصوبي البصائر، الذين يتخبطون كالعشراء، وجل من لم يصب بمثل هذا السيل الطام، فلا أقل من أن يناله رشاشه المتناثر هنا أو هناك.

بالطبع ـ أيها المسلم ـ أنا وأنت وهو وهي وغيرنا، جميعًا نحن أعضاء في هذا المجتمع الفسيح، كل فرد منا عرضة للقلق أو الغضب، مثلما هو عرضة للسعادة والهناء، الكل يريد السعادة، ولكن لا أحد يريد أن يرى نفسه قلقًا أو كئيبًا، وإن كان ثم وقوع في حمأة القلق لفرد ما، فقد لا يحسن التصرف أمام هذه البلية العظمى، إما عن جهل منه بطرق الخلاص والنجاة من هذا المأزق الحرج، وإما عن سلوك طرق وهمية مصحوبة بغفلة ووسنة، يحسنان له القبيح، فيظن جاهلاً أنه مكمن الدواء، وكان كالمستعسل ذا سم.

وإما أن يكون المتصرف مع هذا الداء يعلم خطورته وسحق هوته، ولكنه

يصر على البقاء فيه، أو يتعمد بتقطيع ألمه بكيوفات مهدئة، أيًا كانت ذوائبها مما لا يقرها الشارع الحكيم، ويالله إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة، وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم.

أيها المسلمون:

إن من الإنصاف التام ألا يُهون من شأن هذه القضية، وألا نجعل الإحساس بالقلق جهلاً منا أو مكابرة، حكرًا على ذوي الضعف وملتحفي المسغبة والإملاق، ولا غرو فيما أقول ـ عياذ الله ـ فكم رأينا كبراء قلقين، وأغنياء مضطربين، إذ من الناس من يقلق من فراغ بطنه إبان إملاقه، والبعض الآخر ربما قلق بسبب التخمة التي تحويها بطنه إبان إغداقه.

ألا وإن قلقًا ما، في نفس فقير مدقع، ليس بأقل خطورة من قلق ما في نفس ثري طائش، وقولوا مثل ذلك في الصبي والشرخ والشاب، والذكر والأنثى، والصحيح والسقيم، قلق في المال، وفزع من المستقبل المجهول، وشعور بالوهن عن حمل المتاعب، وميل الإنسان إلى التوجس حتى من أبعد الأمور احتمالاً، والتي سببت من خلاله الحضارة المادية الحديثة سوءَ العلم بالله، وزعزعة الثقة به وبحكمته وعدله، إلا من رحم الله مما هو في الحقيقة سر ولا شك في قيام الكهانة والدجل على أعتاب العرافين والمشعوذين، بحثًا عن حل لمشكلات استيئسوا هم من حلها، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، ولسان حالهم يقول: وداوني بالتي كانت هي الداء.

وهو كذلك سر لقيام ما يسمى (شركات التأمين)، وتغلغل فروعها، واستسمان ورمها في أرجاء الدنيا العامة، وكأنهم موكلون في حماية الناس من قدر الله، فاستحوذت تلك الشركات على قناطير مقنطرة من الذهب

والفضة، مستغلة بذلك خشية الخوافين على أعمارهم حينًا، وعلى أموالهم وممتلكاتهم حينًا آخر، والتي يساورهم القلق من أجلها.

والمستنكر هنا ـ عباد الله ـ استباحة التأمين لدى الجماهير من الناس على كافة أصقاعهم، في حين إن جمهور أهل العلم على تحريمها، والمنع منها لأدلة ليس هذا محل بسطها، ناهيكم ـ أيها المسلمون ـ عن الشين والعيب في المتاجرة بالذعر الناشئ عن خور اليقين والفَرَق الذي استحوذ على ضعاف النفوس عندما يدفعهم الشك وقلة الإيمان بقضاء الله وقدره، إلى ارتقاب الموت أو الخسار، كامنًا لهم في كل أفق، فتفزعهم الهمسة، وتؤلمهم اللمسة، ولا يعرف السم إلا من كابده، وما رائي للسم كمن شرب.

أيها المسلمون:

لقد أكدت الدراسات الميدانية الحديثة، على مستوى العلوم التطبيقية والطب النفسي، أن القلب والاكتئاب ينتشران بصورة فعالة بين الأطفال، لاسيما في دول الغرب، أو دول تسير في ركابه، وذلك على حد سواء بين أطفال الفقراء وأطفال الأغنياء، بنسبة مفزعة تصل إلى ربع المائة، وأن أولئك المصابين لديهم الاستعداد المبكر لتعاطي المخدرات والكحول، أكثر بمرات من غيرهم.

كما أكدت الدراسات على أن مراهقي الإناث أكثر إصابة بالقلق من الذكور، وأكدت بعض جولات الاستطلاع أن الخوف من الفشل والتسريح والبطالة هي من أهم أسباب القلق، الذي يسيطر على العاملين بصورة عامة، ويظهر أثر ذلك على صورة اضطراب في الدورة الدموية، وضعف المقدرة على التركيز، وخفقان القلب، وقرحة المعدة، وأرق واكتئاب دائمين.

وقد أكد خبراء متخصصون في مثل هذه الدراسات أنهم استطلعوا ما يقارب المائتين من رجال الأعمال، أعمارهم متجانسة، فاتضح أن أكثر من ثلثهم يعانون واحدًا من ثلاثة أمراض، كلها ناشئة عن القلق، وهي: إضطراب القلب، وقرحة المعدة، وضغط الدم، وقد قالوا عن هذا القلق: إنه شعور عاطفي يعتري الإنسان، يمنعه من التمتع بحالة الاستقرار النفسي والبدني، بحيث يفقد أمرين عظيمين من أمور الاستقرار، وهما: الصبر، والسكينة، ويسميه بعض علماء القلوب: اكتئابًا.

عباد الله:

للقلق المتفتق بين ظهرانينا أسباب كثيرة، يطول حصرها، والناس فيها بين مقل ومكثر، ولكن حاصلها وجماعها لا يخرج في الغالب عما سنطرحه في هذه العجالة:

فأولها وأعظمها، بل هو حمأة النكد، ونواة القلق، ألا وهو: البعد عن الله جل وعلا، بحيث يقصر المرء في طاعة ربه، إذ قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وخمول الذكر، والوحشة بين العبد وربه، ومنع إجابة الدعاء، ومحق البركة في الرزق والعمر، وقسوة القلب، تتولد كلها من معصية الله، ومن البعد عن طاعته وذكره، فإن تولى اللهُ العبدَ، ويسر له سبل الطاعة والهداية، انقهرت عنه هذه كلها، وإن تخلى عنه، ووكله إلى نفسه، اجتمعت عليه فكانت الهلكة والعياذ بالله، ورسول الله ﷺ يقول: «**من تعلق شيئًا وكل إليه**» رواه أحمد والترمذي.

يقول الله جل وعلا: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [طه: ١٢٤]، ويقول سبحانه: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي**

السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال سبحانه عن الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴾ [الجن: ١٣]، ويقول: ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٧] أي: مشقة لا راحة معها.

يقول أحد السلف: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، فسئل عن ذلك فقال: معرفة الله ومحبته، والشوق إلى لقائه وعبادته..

وسبب آخر من أسباب القلق، يكمن في تصور مقلوب للمال وحقيقته، إذ فهم منه أقوام أنه مصدر السعادة وزوال القلق، فحدِّثوا ولا حرج عن هُيام البعض به، من أثرياء مترفين، أضعفوا خلقهم ودينهم «والتجار فجار إلا من بر وصدق»، هكذا الخبر عن الصادق المصدوق ﷺ.

فاستخف بعضهم بقواعد الإيمان، فأكل بماله كما تأكل الأنعام، وشرب كما تشرب الهيم، معاملاتهم وتجاراتهم وعلائقهم بالناس إنما تقوم على أصول من المعدة، لا من الخلق، وعلى استشمام رائحة الاقتيات، لا رائحة الإيمان وحسن السجايا، عارية نفوسهم من صفاء الروح والتراحم بين البشر، فكأنهم يشترون القلق بمالهم، ويبيعون الطمأنينة كما يباع الحقير في أسواق النخاسين، وما علموا أن السعادة الحقة ليست في جمع المال فحسب، إذ كم من غني وجد لكنه ما وجد إلا عكس ما كان قد وجد، ولعمر الله إن التقي هو السعيد.

ويزداد النور إشعاعًا حينما يكون المال بيد العبد المسلم على نحو ما قال النبي ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»، أين هذا مما يتردد كرات ومرات؟، عبر الصحافة وأشباهها، عن دراسات تؤكد (أن من الحقائق

المسلمة أنه عندما تهبط قيمة الأسهم فيما يسمى (البورصة) ترتفع نسبة السكر بين المضاربين)، فأي علاج إذن، أنجع من قول النبي ﷺ: «**هذا المال خضر حلو، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه باستشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع**» رواه أبو داود.

وسبب ثالث من أسباب القلق: يقال له: الهم، نعم عباد الله، الهم بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معاني الحزن والشدة والإذابة، الهم الذي يحطم العمالقة، ويذبل الوجوه الطافحة بالحياة النضرة، الهم الذي يخترم الجسيم نحافة، ويُشيب ناصية الصبي ويهرم، إن سوء الإحسان في مواجهة الفتن والبلايا والرزايا، بحيث يتغلب الضجر على الصبر، ويفقد العقل توازنه واعتداله، لهو منبت الهم ونقعه، وإن الكثيرين في الواقع يتبرمون بالزوابع التي تحيط بهم، مع أن المتاعب والآلام تربة خصبة، تنبت على جوانبها بذور الرجولة، وما تفتقت مواهب العظماء إلا وسط ركام من المشقات والجهود المضنية، ولم يكتفوا بإصرار مؤقت، يخدع المرء به نفسه، فيقول: أنا راضي، ونفسه طافحة بالضيق والتقزز، فينشئ له من طبعه الجزوع ما يبغض إليه الصبر، ويجعله في حلقه مر المذاق، فيتنجنج ويضيق، ويحاول جاهدًا أن يخرج من حالته على نكظ، إذ إن عشاق السخط ومدمني الشكوى هم أضل الناس في إشراب حياتهم معنى الطمأنينة، حيث يطوفون حولها مُعولين منتحين، ولم يدعوا ألسنتهم وقلوبهم تلعق ما في واقعهم المر من غضاضة.

اشتكى عروة بن الزبير الأكلة في رجله، فقطعوها من ركبته، وهو صامت لم يئن، وفي ليلته تلك سقط ولد له من سطح فمات، فقال عروة: اللهم لك الحمد، كانوا سبعة من الولد، فأخذت واحدًا وأبقيت ستة، وكان

لي أطراف أربعة، فأخذت واحدًا وأبقيت ثلاثة، فإن كنت أخذت فلقد أعطيت، ولئن كنت قد ابتليت لقد عافيت. .

لو رجع المرء لنفسه قليلاً لاتهم مشاعره الثائرة حيال ما ينزل به، فمن يدري رب ضارة نافعة، أو صحت الأجسام بالعلل، أو لرب محنة في طيها منحة، وكم بسمة كانت وليدة غصة، وكل إنسان يصيبه من الكروب ما يهون معه ما سلف من الخطوب، وكم من زمن بكيت منه، فلما صرت في غيره بكيت عليه، ولن يبكي الباكون في مفقود مثل محمد ﷺ، ومن ذكر مصيبة يسلو بها، فليذكر مصاب الأمة بالنبي محمد ﷺ، فما فقد الماضون مثل محمد ﷺ، ولا مثله حتى القيامة يفقد، وهل عدلت يومًا رزية هالك رزية يوم مات فيهم محمد ﷺ.

ألا إن مكاره الدنيا ضربان، ضرب فيه حيلة فالاضطراب داؤه، وضرب لا حيلة فيه فالاصطبار شفاؤه، والحكمة البليغة تقول: الحيلة فيما لا حيلة فيه الصبر، وعواقب الأمور تتشابه في الغيوب، فرب محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من داء فيه شفاؤه، ورب خير من شر، ونفع من ضر ﴿**فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ١٩].

مر إبراهيم بن أدهم على رجل قلق مهموم، فقال له: إني سائلك عن ثلاثة فأجبني، قال: أيجري في هذا الكون شيء لا يريده الله؟، أو ينقص من رزقك شيء قدره الله؟، أو ينقص من أجلك لحظة كتبها الله؟، فقال الرجل: لا. قال إبراهيم: فعلام القلق والهم إذن؟

الهم - أيها المسلمون - جند من جنود الله، يسلطه الله على من يشاء من عباده بعدله وحكمته، سبحانه: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ**

عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الفتح: ٤].

سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من أشد جند الله؟، قال علي: الجبال، والجبال يقطعها الحديد، فالحديد أقوى، والنار تذيب الحديد، فالنار أقوى، والماء يطفئ النار، فالماء أقوى، والسحاب يحمل الماء، فالسحاب أقوى، والريح تعبث بالسحاب، فالريح أقوى، والإنسان يتكفؤ الريح بيده وثوبه، فالإنسان أقوى، والنوم يغلب الإنسان، فالنوم أقوى، والهم يغلب النوم، فأقوى جند الله هو الهم، يسلطه الله على من يشاء من عباده.

دخل رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: «**يا أبا أمامة مالي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت الصلاة؟**، قال: هموم لزمتني، وديون يا رسول الله، قال: **أفلا أعلمك كلامًا إذا قلته أذهب الله همك، وقضى عنك دينك؟**، قال: بلى يا رسول الله. قال: **قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**. قال أبو أمامة: ففعلت ذلك، فأذهب الله همي، وقضى عني ديني. رواه أبو داود في سننه.

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده كما أمر، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إرغامًا لمن جحد به وكفر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، سيد البشر، والشافع في المحشر، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه الأتقياء الغرر.

أما بعد:

فما أكثر العواصف التي تهب علينا، وتملأ آفاقنا بالغيوم المرعدة، وكم يواجه المرء منا بما يكدره، وينغص عليه ما يشتهي بحلول القلق والاضطراب النفسي في شخصه، حتى تجتمع عليه السباع الأربعة التي تهدد البدن وتوهنه، وهي: الهم والحزن والأرق والسهر.

وقد صح الخبر عن المعصوم ﷺ أنه: «**ما من داء إلا وله شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**».

بيد أن كثيرين ممن يعالجون القلق، هم في الحقيقة مظهرون للعلل النفسية، والجل منهم نجحوا في الهدم، ولم ينجحوا في البناء، وقطعوا الطريق على أناس باحثين عن الشفاء، ففشلوا في إرشاد نفس قلقة.

وللطب النفسي العري عن شريعة الله الحظ الأوفر في إعماق هذه الهوة، حيث لجأ جمهور منهم في علاج القلق إلى ما يسمى (بالمعازف والموسيقى»، والتي نُقل إجماع أهل العلم على تحريمها، أو بما يسمى التنويم المغناطيسي، والذي يفتح مجالاً واسعًا لمتهنيه في أن يقلبوا الحقائق،

ويمتطوا من خلاله أهواءهم في تنفيذ مآرب دنيئة، حتى امتدت إلى ما يسمى بالروحية الحديثة لمجالس تحضير الأرواح، وهي ضرب من الكهانة والشعوذة، والقلب على الرعاع، وفي كلتا الحالين هم يشرحون الصدور بتغييب الوعي، فكأنما يلهث المرء وراء سراب بقيعة، كلما ازداد منه قربًا ازداد منه بعدًا وتخييلاً، حرصوا على تطبيب الزكام، والنتيجة الحاصلة استفحال الجذام.

وإذا كان الأمر كذلك ففيما شرعه الله من الأدوية، وفيما أباحه منها غنية تامة في علاج الأدواء، والأدوية الناجعة كثيرة جدًا، من أشهرها: القرآن الكريم، كلام الله عز وجل، فيه شفاء للناس من أمراض القلوب والأبدان، وقد دلت النصوص الشرعية على تخصيص بعض الآيات للرقية الشرعية، كسورة الفاتحة، والإخلاص، والمعوذتين، ولو رقى المرء نفسه بآيات غيرها من القرآن فلا بأس.

ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إذا اشتدت عليه الأمور قرأ الآيات التي فيها ذكر السكينة، ويقول ابن القيم رحمه الله عن شيخ الإسلام: سمعته يقول في واقعة عظيمة جرت له في مرضه، تعجز العقول عن حملها من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعف القوة، قال: فلما اشتد عليَّ الأمر قلت لأقاربي ومن حولي: اقرأوا آيات السكينة، قال: ثم أقلع عن ذلك الحال، وجلست وما بي قلبة.

قال ابن القيم رحمه الله: وأنا جربت أيضًا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب بما يرد عليه، فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

ومن الأدوية الناجعة لداء القلق - عباد الله - الذكر والصلاة، ذكر الله تعالى على كل حال تحصل به الطمأنينة، ويزول القلق ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ

قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد : ٢٨]، يقول ابن القيم رحمه الله: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون السمك إذا فارق الماء؟.

فيالله أيها المسلمون، أي وصية أعظم وأجدى في مثل هذه الحال من وصية الله لعبده وخليله ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر : ٩٧ : ٩٩].

ولأجل ذا صح عنه ﷺ أنه: «كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة». رواه أحمد وأبو داود.

وقال كما عند أحمد والنسائي: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»، وثبت عنه أنه قال: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب**» رواه أبو داود والنسائي.

يقول الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

اللهم صل على محمد..

* * *

«وصُفِّدتْ الشياطين»

الخطبة الأولى

الحمد لله الأول والآخر، والظاهر والباطن، نحمده إذ لم يُصبح بنا ميتين ولا سقماء، ولا مضروبين على عروقنا بسوء، ولا مقطوعًا دابرنا، ولا مرتدين عن ديننا، ولا منكرين لربنا، ولا مستوحشين من إيماننا، ولا معذبين بعذاب الأمم من قبلنا، أصبح بنا عبيدًا مملوكين له، له الحجة علينا ولا حجة لنا عليه، شرُنا إليه صاعد، وخيره إلينا نازل، نستعين به على هذه النفوس البطاء عما أمرت به، السراع إلى ما نهيت عنه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، مبلغ الرسالة، وصاحبُ الحوض والشفاعة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه الأتقياء البررة، ورضي الله عنهم أجمعين.

أما بعد:

فيا أيها الناس.. بادئ ذي بدء أوصيكم بتقوى الله سبحانه، التي هي الزاد، وبها المعاد، زاد مبلغ، ومعاد منجح، دعا إليها أسمعُ داع، ووعاها أفقه واع، فأسمع داعيها، وفاز واعيها، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع

أجر المحسنين.

أيها المسلمون..

في شهر رمضان المبارك، أسرار خوالد، وحكم بواهر، يتضوأ بعضها على بعض، ويتألق في غرة الزمان، ومع أنَّ هلاله الوليد، يُطل كرات عديدةً، وأزمنةً مديدة، إلا أن كثرة الحديث عنه لا تخلق جدَتُها، ولا يبلى ترجيعُها، ولا تُسأم سيرتُها، بل قد تحلو أو تعلو إذا أعيدت وتكررت، كما يحلو مذاق الشهد وهو يكرر، يزداد بالحديث عنه بهاءً وسناءً كلما تناوله العرضُ والبحث، كالذهب الإبريز كلما عُرض على النار ازداد إشراقًا وصفاءً، كل ذلك يجعل المرء المسلم في عيشه متفائلاً، يحدوه الأمل في استرجاعه، ويستحثه التشوق إلى مزيد من المعرفة لأسراره وحكمه، بل ما برحت نفسُه تشرئب لمثل هذه الإطلالة السنوية، والتي تعم المدر والوبر، ما عم الأجدان الليل والنهار.

أيها المسلمون..

إن حديثنا في هذا المقام عن رمضان سيسير على شاكلة، قل من يتوجسها؛ لأنه ينحى منحىً يغفل عنه كثيرون من ذوي الأطروحات أو مستمعيها، مع أنه ليس بدعًا من الحديث عن رمضان، ولا فتونًا يُردَّد، ولا تكلفًا لمفقود لا طائل من وراء البحث فيه، بل هو من لُباب رمضان، والحديث عن رمضان.

يقول عنه أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**إذا دخل شهر رمضان فُتحت أبواب الجنة، وغلِّقت أبواب النيران، وصفدت الشياطين**». رواه البخاري ومسلم..

إذًا - أيها المسلمون - نفهم من قول النبي ﷺ: «**وصفدت الشياطين**» نفهم

منه أن لهذه المخلوقات الشريرة من القوة والغلبة والتأثير السريع ما يحتاج المسلم معه إلى أن يصفدوا عنه في هذا الشهر المبارك؛ لأجل ألا يخلصوا فيه إلى شيء كما يخلصون في غيره.

بل كما يقول ابن القيم رحمه الله: «لأن في الصوم تضييق مجاري الشيطان من العبد، بتضييق مجاري الطعام والشراب» انتهى كلامه رحمه الله.

فلا غرو إذًا أن نيمم الحديث في عجالة وإطناب شديدين عن الشيطان والشياطين، أعاذنا الله وإياكم من همزاتهم، وأعاذنا الله أن يحضرونا.

الشياطين - يا رعاكم الله - جمعُ شيطان، والشيطان هو كافر الجن ومتمردهم، فإنه لم يذكر في النصوص الشرعية إلا في مواطن الكفر والذم وما في معناهما، ويطلق هذا الاسم على إبليس وذريته، وهو الاسم العلمُ الذي عرفُ به، وهو أصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس، بذلكم قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من المحققين.

والمطالع لما جاء في نصوص الوحيين عن الشيطان والشياطين يعلم أنهم خلق خُلقوا من نار، يعقلون ويسمعون، ويدركون ويتحركون، وليسوا كما يقول بعضُ من لا علم لديهم من متفلسفة ولهازم ألداء في الخصام: إنهم روح الشر، متمثلين في غرائز الإنسان الحيوانية التي تصرفهم عن المثل الروحية العليا ونحوها زعموا!.

الشيطان - أيها المسلمون - له قبح في المنظر، ودمامة في الصورة مروعة، وكفاكم من شر سماعه، ولو لم يأت في ذلك إلا أن الله جل وعلا شبه ثمار شجرة الزقوم به كما في قوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥].

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا

تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها، فإنها تطلع بقرني شيطان».

لقد خلق الله الشيطان منبعًا للشر والآثام، وقائدًا إلى الهلاك الدنيوي، والخسران الأخروي بكل وسيلة ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١]، ورحم الله ابن القيم حيث قال: «في خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله» ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾. . [الإسراء: ٦٢].

فيالله.. إلى أي مدىً حقق الشيطان مراده من بني الإنسان، إن أولياء الشيطان لتعجُ بهم الحياةُ عند كل مرصد، قُعَّدًا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجًا، يرفعون رايته، ويُشيعون مآربه، ويسعون في الأرض فسادًا والله لا يحب المفسدين، ولقد صدق الله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

أما إنه لا أدل على مدى هذا التحقيق إلا ما ثبت عند البخاري في صحيحه: «أن الله يأمر آدم يوم القيامة أن يخرج من ذريته بعث النار، فيستعلم آدمُ عن هذا المقدار، فيقول له ربه: تسعة وتسعون إلى النار، وواحد في الجنة».. أوَّه أيها المسلمون، ما أعظم المحنة، ولا إله إلا الله ما أمكنه من نفوس بني آدم ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

أيها المسلمون.. يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٣٥].

بذلك ـ عباد الله ـ يبين الله جانبين هامين: أولهما: عداوة الشيطان، وأنها عداوة حقيقة لا يخالجها شك أو ريبة، كتب الله لها الدوام إلى قيام

الساعة، لكنها في الوقت نفسه لا تعدو كونها حقيقة نظرية مجردة، إن نحن لم نلتفت إلى الجانب الآخر المهم، وهو الجانب العملي التطبيقي، ألا وهو قوله سبحانه: ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

إننا - أيها المسلمون - لا نخشى على النفوس الكافرة من الشيطان، فتلكم نفوس مظلمة، قد ضرب الشيطان أطنابه فيها ورتع، حتى تولته وألفته، ولكن الخوف كل الخوف، والخشية كل الخشية على أنفس مسلمة، لم تحسب للشيطان حسابًا في واقعها، وباتت غافلةً عنه، غير آبهة بمكره وألاعيبه هو وجنده، وهي وإن كانت معترفةً بقابليتها لألاعيبه وإغوائه لكونها غير معصومة، إلا أنها نفوس اعتقد أهلها أنهم معصومون عن الشيطان والشياطين بمصل ضد مكره، محميون عن آثاره وإفساده، بعد أن كونوا حولهم هالةً زائفةً من الاطمئنان لأحوالهم وأوضاعهم الرتيبة على الاكتفاء بظواهر طفيفة من الإسلام، حتى أمسوا وكأن ما يحملونه هو الإسلام فحسب، مما يحرمهم ولا شك من إصلاح أخطائهم من جهة، ومن الاستفادة من الصواب الذي يأتي به الغير من جهة أخرى.

ألا إن من أمكر حيل الشيطان أن يقنعنا بعدم وجوده، ليس عدم وجوده في عالم الواقع، بل عدم وجوده داخل أنفسنا، وهذا هو الشلل الأخلاقي بقضه وقضيضه، وهو الارتضاع من ثدي الهوى بعد الفطام، مع أن الرضاع إنما هو للطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، والذين يتضورون على مرارة الفطام.

ولا جرم - عباد الله - فالهوى مكايد، وكم من صنديد في غبار الحرب اغتيل، كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**» رواه البخاري ومسلم.

إننا - أيها المسلمون - حينما نحذر من الشيطان وجنوده، نلقي الضوء على هوة التبعات، وسوء المغبات من جراء ذلك، فإننا لنذكر بصدق على أن من قوي إيمانه، وأخلص لربه كان قهره للشيطان قاب قوسين أو أدنى، لأن كيد الشيطان كان ضعيفًا، وما أسرع ما يذل أمام القوي، وما أعجل ما يفِرُّ من صاحب العزيمة وولي ربه، لأن البقاء المستمر في طاعة الله وذكره الدائم على كل حال كفيل بالتخفيف من سَوْرة الشيطان، أو إطفاء أتون مكره وتربصه على أقل تقدير، بل وحور كوره، ومن ثم تشخَصُ أحداقُ المتقي تعجبًا لما يرى من ضعف الشيطان أمامه، فلا يلبث أن يوقن أنه إنما كان مستسمنًا ذا ورم.

كان رجل رديفَ النبي ﷺ على دابة فعثرت الدابةُ بهما، فقال الرجل: تعس الشيطان، فقال له النبي ﷺ: «**لا تقل تعس الشيطان، فإنه عند ذلك يتعاظم حتى يكون مثل البيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر عند ذلك حتى يكون مثل الذباب**» رواه أحمد وأبو داود.

وحكى ابن القيم رحمه الله عن بعض السلف أنهم قالوا: «إذا تمكن ذكرُ الله وخشيتهُ من قلب المرء، فإن دنا منه الشيطان صرعه الإنسي، كما يُصرع الإنسانُ إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين فيقولون: ما لهذا؟، فيقال: قد مسه الإنس».

أتعجبون من كلام ابن القيم - عباد الله - ألا فاستمعوا إلى ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر**»، قال ابن كثير رحمه الله: «معنى (**ينضي** شيطانه) ليأخذ بناصيته فيغلبه، ويقهره، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه».

وروى الحاكم، والبيهقي بإسناد حسن أن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى**

مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار تبرأ منه وألزمه الشيطان»، ورضي الله عن الفاروق، خليفة رسول الله ﷺ، حيث يقول له قدوتُه: «**والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك**».

والذي عليه إجماع الأمة قاطبة أن عمر رضي الله عنه لم يكن على شريعة غير شريعة محمد ﷺ، ولم يكن نبيًا مرسلاً، ولا ملكًا مقربًا، ولكنه إيمانٌ ويقين، وقوة في الحق، ودحر للباطل، والله الهادي إلى سواء السبيل.

أيها المسلمون ..

لما علمت الشياطين أن المدار في أمور العباد على قلوبهم، والاعتمادَ عليها بعد الله في قُربهم وبُعدهم من الخير أو الشر، أجلبوا عليهم بالوساوس، وأقبلوا بوجوه الشهوات إليهم، وأمدوهم بما يقطعهم عن أسباب التوفيق، ونصبوا لهم من المصائد والحبائل ما لو سلموا من الوقوع فيها لم يسلموا من أن يحصل لهم بها التعويق، فيوقعوهم في متاهات الوساوس والشكوك في العبادات ومعاملات الناس، والعبادة أخطر وأدهى، فكم هم صرعى الشياطين في هذا الميدان، وكم هم أهل الوساوس، الذين بلوا أنفسهم في عبادتهم.

فلله كم من موسوس لا يثق في أحد ولا يصدق أحدًا، يظن كل نواة تمر لغمًا، ويحسب كل صيحة عليه، يألم من اللمس، ويجزع من الهمس، يعامل الناس طُرًا بعين من طبعه، يظن أن كل الناس ألداء مثله، أو ظلمة مثله، أو كذبة مثله، أو غششة مثله.

ولله كم من موسوس يأخذ اللحظات الطوال من أجل أن يحسن عقد النية من صلاته أو قراءته أو عمرته أو حجته، وأما الوضوء فحدثوا عن ذلك ولا حرج، طول وقت، وكثرة إعادة، وإسراف مشين، حتى إن أحدهم

ليتوضأ بما يغتسل به الجماعة، صبًا صبًا ودلكًا دلكًا، تعذيبًا لأنفسهم، وقد أعيتهم الشياطين عن أن يفقهوا قول ابن عباس رضي الله عنهما: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس».

ناهيكم عن أعيائهم أن يفقهوا أن النبي ﷺ كان يتوضأ بالمد، ويغتسل بالصاع، بل قد يبلغ الأمر ببعضهم أن يرى أنه لو توضأ وضوء رسول الله ﷺ فوضوؤه باطل.

دخل العلامة الفقيه أبو الوفاء ابن عقيل رحمه الله على أناس في رباط، فتوضأ، فضحكوا لقلة استعماله الماء، فسأله رجل موسوس فقال: إني لأنغمس في النهر ثم أخرج منه، وأشك أني وضوئي قد صح. فقال له: سقطت عنك الصلاة، لأن رسول الله ﷺ يقول: «**رفع القلم عن ثلاثة**»، وذكر منهم: «**المجنون حتى يفيق**».

كل ذلك أيها المسلمون من استيلاء الشياطين على الموسوسين، حتى إنهم أجابوهم إلى ما يشبه الجنون، أعاذنا الله وإياكم من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس.

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة..

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمد من يشكر النعمة، ويخشى النقمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، معلمنا الكتابَ والحكمة صلى الله عليه وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أهل الكتاب والسنة، وعلى تابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن ثم محوراً آخر مما يلحق بني آدم من الشياطين ومردة الجان، وذلك - عباد الله - الأذى المتواصل في النفس والبدن، إذ لا يكفون سطواتهم على أجساد العباد، حتى آذوا وآنوا، فبُلي أقوام ليسوا قلة بألوان من الأذى والضنك، من خلال الإصابة بمس مردة الجان والشياطين، ودخولهم أجساد بعض من بني آدم، والتلبس بهم، مما هو مشاهد في أرض الواقع، ولا ينكره إلا غر مكابر، لم يحكم نصوص الكتاب والسنة، في مثل قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وفي مثل ما صح عند الترمذي وابن ماجه: «أن النبي ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان، ثم من أعين الإنس، فلما نزلت المعوذتان أخذها وترك ما سوى ذلك».

وقد جاءت امرأةٌ إلى النبي ﷺ بابن لها قد أصابه لمم، فقال ﷺ: «**اخرج عدو الله، أنا رسول الله، فبرأ الصبي**» رواه الإمام أحمد.

ناهيكم - أيها المسلمون - عما هو أسوأ من ذلك حين نرى الدجاجلة

الأفاكين، والسحرة والكهنة والعرافين، الذين هم إخوان الشياطين، ممن يدعون علم ما لم يعلموا كادعاء الغيب، وأمثالهم ممن تخدمهم الشياطين، بعد أن يتقربوا إليهم بما يحبونه من الكفر، أو الشرك بالله، كأن يكتبوا كلام الله بالنجاسة أو بالدم، أو يذبحوا للشياطين، أو يسجدوا لهم، أو يطأوا على المصحف، وقد يتظاهر بعضهم بالصلاح والتقوى، وهم في الحقيقة أضل الناس وأفسقهم، كما ذكر شيخ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله عمن يدعي الولاية يقال له: الحلاج، وكان صاحبَ سحر وشياطين تخدمه أحيانًا، كان معه بعض أتباعه على جبل أبي قبيس بمكة، فطلبوا منه حلاوة، فذهب إلى مكان قريب وجاء بصحن حلوى، فكشفوا الأمر، فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوي باليمن، حمله شيطان تلك البقعة.

ومثل هذا يحدث كثيراً للحلاج ومن على شاكلته، ممن لهم أحوال شيطانية.

أما الكهان فهم عباد الشياطين، يتلبسون بهم، وينطقون على لسانهم، يقول الخطابي رحمه الله: الكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية، فألفتهم الشياطين، لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه.

وقد ذكر المحققون من أهل العلم أنه كان للأسود العنسي الذي ادعى النبوة شياطين يخبرونه ببعض الأمور المغيبة، وكذلك مسيلمة الكذاب، كان معه من الشياطين من يعينه على ذلك.

وأول من ادعى في الإسلام أن الأرواح تنزل عليه وتخاطبه: المختارُ بنُ أبي عبيد الثقفي، وقد قيل لابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم: إن المختار يزعم أنه ينزل إليه. فقالا: صدق، قال الله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ**

الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٣].

وأخيرًا أيها المسلمون . . قد يقول قائل: إن هؤلاء العرافين والكهان يحدثون بأشياء تصدق أحيانًا، فيقال لهم: حسبكم إجابةُ النبي ﷺ، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، فقد سُئل رسول الله عن الكهان، فقال: «**ليسوا بشيء**. فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحيانًا بالشيء يكون حقًا؟. فقال ﷺ: **تلك الكلمة من الحق، يخطفها الجني، فيقرقرها في أذن وليه، كقرقرة الدجاج، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة**» رواه البخاري.

ألا لقد صدق الله: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وبعد أيها المسلمون . . فهذه بعض الحكم الظاهرة، والشذرات المتناثرة، تم لمها ولقطها ليسترشد مسترشد، ويرجع زائغ، ويهتدي ضال، وما لم نذكره أكثر مما ذكرناه، فدونكم تصفيد الشياطين في هذا الشهر المبارك.

فالله الله أن تفوتكم الفرصة ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

اللهم صل على محمد . .

* * *

«السياحة بين المفاهيم»

الخطبة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، وعلى آله وأصحابه، الذين ساروا على طريقه، واتبعوا نهجه وهداه، وعلى من تبعهم وحذا حذوهم ما تعاقب الأجدان الليل والنهار.

أما بعد:

فيا أيها الناس اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، الزموا حدود الله، فامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وحذار حذار من التفلت والحياد عن سبيله، كما تتفلت الإبلُ في عقلها، فإنه ما من زمان يأتي إلا والذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم.

وإنكم ستعرفون من الناس وتنكرون، حتى يأتي على الناس زمانٌ ليس فيه شيء أخفى من الحق، ولا أظهرَ من الباطل، ولا أكثرَ من الكذب على الله ورسوله، ألا فمن استَنصَحَ اللهَ وُفِّق، ومن اتخذ شرعته نهجًا هُدي للتي هي

أقوم، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون.

عباد الله:

تكلم أهل الأصول وعلم البيان عن الكلام وماهيته، وأن من أقسامه ما يسمى «الحقيقة»، وأن الكلام الحقيقي قد يكون لغويًا أو شرعيًا أو عرفيًا، كما هو في مظانه من مؤلفاتهم، والذي يُفيدنا منه في هذا المقام هو: أن الأصل في الألفاظ حملُها على الحقيقة بواحد من أقسامها الثلاثة الآنفة.

وإذا كان الأمر كذلك فإن طغيان الجانب المادي، واللهثَ وراء المحسوسات المشغلة عن الدين والتدين، وسلوك النهج القويم، والدخول في دائرة الأخلاق التي تشمل الجميع، كان سببًا ولا شك في قلب الحقائق، وجعل الشين زينًا، والمرِّ حلوًا، ومثول صور شتى من اللامبالاة بقيم الألفاظ ودلالات الكلام وثمراته، كما جاء في بعضً الأحاديث من تسمية الأشياء بغير اسمها، كما تسمى الخمرة عند أقوام بالمشروبات الروحية، والمخدراتُ كيوفات حيوية، وما أشبه ذلك.

غيرً أن مما يُروِّعنا ـ عباد الله ـ خلائقَ مقبوحة، انتشرت بين كثير من المجتمعات المسلمة في كافة الأقطار دون مبالاة، أو بعبارة أخرى على إغماض متعمد أو شبه متعمد من ذوي المسئوليات العامة، من كافة الناس المكلفينً، واستمرت موافقةُ الناس لها، حتى حولها الإلفُ والمحاكاة إلى جزء لا يتجزأ من الحياة العامة والتحسينات اللامحدودة.

ومن هنا رأينا الاستهانة بالكلمة وحقيقتها التي وُضعت لها، ورأينا قلّة الاكتراث بالأمانات والمسئوليات الثقيلة، ورأينا القدرة على التكيّف في قلب الحقائق، إذا حل الهوى قلبًا خاليًا فتمكن منه، ومن ثم جُعل الجهلُ علمًا وريادة وتطورًا، والعلمُ جهلاً، والمعروفُ منكرًا، والمنكرُ معروفًا وهكذا دواليك.

إن محورَ حديثنا أيها الناس، ونقطة الارتكاز فيما سنطرحه هو ما يسمى في الكلام «السياحة»، نعم: السياحة وما تصرف منها لفظًا أو معنى، تلكم الكلمة ـ عباد الله ـ تكاد تتواطئ أفهام الأغرار من الناس على أنها عبارة دالة بذاتها على معانٍ:

منها: الترويح عن النفس.

أو الاصطياف.

أو الخروجُ عن القيود الشرعية أو العرفية.

أو الارتقاء والتمدن، واتساع الأفق الثقافي.

أو بعبارة تعم الجميع: «العولمة الحرة».

وأيًا كان هذا المعنى أو ذاك، فإنه لن يخرجنا هذا كله عن القول بصدق إن هذه المعاني والمفاهيم للسياحة كلها مغلوطة، وليست من السياحة في وِرْد ولا صَدَر، ولا هي من بابته، ولأجل أن نؤكد على ما نقول بالدليل القاطع، فإن هناك نصوصًا من كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، وأقوال السلف الصالح، كلها تدل على مفهومٍ للسياحة مغاير لما تعارف عليه جمهرة الناس.

يقول الله جل وعلا: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ الآية [التوبة: ١١٢].

قال ابن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وعائشة، رضي الله عنهم وغيرهم: «إن السائحين هم الصائمون»، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا**﴾ [التحريم: ٥]، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «سياحة هذه الأمة الصيام».

وقال بعض أهل العلم كزيد بن أسلم وابنه: «السائحون هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم»، ولذلك قال بعض السلف: «من لم يكن رحله لن يكون رحلة»، أي: من لم يرحل في طلب العلم للبحث عن الشيوخ، والسياحة في الأخذ عنهم، فيبعد تأهله ليرحل إليه.

وأقول ـ أيها المسلمون ـ: إن هذا كان أيام الخلافة الإسلامية، وكون البلدان كالرقعة الواحدة والله المستعان.

وثم إطلاق آخر لمعنى السياحة، وهو السير للمطلوب الشرعي، والبحث عنه عبادة لله، وقربى لديه، كالحج وزيارة المساجد الثلاثة، أو الغزو في سبيل الله أونحو ذلك، فقد ثبت عند الترمذي في جامعه أن النبي ﷺ إذا قفل من غزوة، أو حج، أو عمرة كان مما يقول في دعائه: «**آيبون تائبون عابدون سائحون لربنا حامدون**..» الحديث.

وإطلاق آخر للسياحة بمعنى: عبادة الله في أرضه للمضطهدين في دينهم، والمشردين عن أوطانهم، كما ثبت في صحيح البخاري، من قصة هجرة أبي بكر رضي الله عنه إلى الحبشة، حيث لقيه ابن الدغنة فقال: «أين تريد يا أبا بكر؟، فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربي، فقال ابن الدغنة: إن مثلك لا يخرج ولا يخرج..» الحديث.

ومن هذا المنطلق دونت المقولة المشهورة عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إبان اضطهاده وامتحانه: «ما يفعل أعدائي بي، إن سجني خلوة، وقتلي شهادة في سبيل الله، وتشريدي سياحة».

ولا يعقل ـ أيها المسلمون ـ أن يسيح العالم المجاهد المتقي لأجل أن يلهو ويعبث.

ما مضى ذكره ـ أيها الأخوة ـ إنما هي معان ممدوحة من معاني السياحة والذهاب على وجه الأرض في أصل الكلمة وحقيقتها.

وفي المقابل نجد سياحة مذمومة ممقوتة، نهى الشارع الحكيم عنها،

وأبدل الأمة خيراً منها، تلكم ـ عباد الله ـ هي السياحة في الأرض على وجه العزلة والانطواء، والبعد عن الناس ومخالطتهم، والصبر على أذاهم لأجل التعبد، فقد ثبت عن أبي أمامة رضي الله عنه: «أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة. قال النبي ﷺ: **إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى**» رواه أبو داود في سننه، وصدَّره بقوله باب: النهي عن السياحة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ [الحديد: ٢٧]، يقول رضي الله عنه: «هذا عن ملوك بعد عيسى ابن مريم، بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرأون التوراة.. إلى أن قال رضي الله عنه: فقال أناس منهم: نتعبدُ كما يتعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم، فلما بعث الله النبي ﷺ، ولم يبق منهم إلا قليل انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب دير من ديره، فآمنوا به وصدقوه، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحديد: ٢٨]» رواه النسائي.

يقول ابن كثير رحمه الله: «وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين، كما ثبت عند البخاري من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «**يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعفَ الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»».

فلا إله إلا الله، كم فيما مضى ذكره من عبر، ولا إله إلا الله كم يكفينا ذلك في تذكير أرباب السياحة العابثة، ألا سبحان الله.. سياحة لأجل

العزلة والتعبد منهي عنها، أفتكون سياحةُ اللهو والتخمة أحلَ وأنقى، لا إله إلا أنت سبحانك، ولا نقول إلا ما يرضيك عنا.

تلك - عباد الله - بعض المعالم والشذرات حول مفهوم السياحة الأصل والأساس، والذي كاد يعدم معناه أو ينمحي، حيث أبدله الناس بهذا المفهوم العارم، والذي سنسلط عليه بعضَ الضوء والمصارحة، ففي النصح بركة، والحر تكفيه الإشارة، فنقول: إن الترويح على النفس بما أباح الله لها هو مسرح للاستئناس البريء، الخالي من الصخب واللغط على حد قول النبي ﷺ لحنظلة بن عامر رضي الله عنه: «ولكن ساعة وساعة»، لا كما يقوله أرباب التحرر: ساعات لك، وساعات لربك، واستعن بالهزل على الجد، والباطل على الحق، أو دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر، كلا، فالبيت والمجتمع والإعلام كلهم خاضعون لحدود الله، ومتى تجاوزوا تلك الحدود فما قدروا الله حق قدره، وما شكروه على آلائه.

إن المرء الجاد، الخائف من ربه وولي نعمته، ليس لديه متسع من الوقت أو الجهد لينفقه فيما يعود عليه بالوبال، لقد حرص كثير من الناس على تضخيم الترويح على النفس والبدن، حتى ظنوا بسبب ذلك أنهم مسجونون في بيوتهم وبلدانهم، استصغروا ما كانوا يُكبرون من قبل، واستنزروا ما كان يستغزرون، أقفرت منازلهم من الأنس، وألفوا السياحة على مفهومهم القاصر، والجلوس في المنتديات حال الاغتراب، حتى أصبح المرء منهم في داره حاضراً كالغائب، مقيمًا كالنازح، يعلم من حال البعيد عنه ما لا يعلم من حال القريب منه.

قبل الإجازات يعقدون الجلسات غير المباركة عن معاقد عزمهم في شد الرحال، إلى مجاري الأنهار، وشواطئ البحار في بلاد الكفار، أو بلاد تشبهها، يفرون من الحر اللافح إلى البرد القارص، وما علموا أن الكل من فيح جهنم ونفسها الذي جعله الله لها في الشتاء والصيف، رحلاتٌ عابثة،

تفتقر إلى الهدف المحمود، والنفع المنشود، أدنى سوئها الإسراف والتبذير، ناهيكم عما يشاهده هناك من محرمات ومخازي لا يُدرى كيف يُبيح المرء لنفسه أن يراها؟، وماذا سيجيب الله عن قوله: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾ [النور: ٣٠].

الجل من السياح نهارهم في دُجنة وليلهم جهوري، ألذ ما عند بعضهم سمرُ العشاق، أو شغل المشغولين بالفراغ، عبادتهم نزر، وغوايتهم غمر، يأكلون الأرطال، ويشربون الأسطال، ويسهرون الليل وإن طال، حتى يصير الصبح ليلاً، والليل صبحًا، فيختلُ الناموس الذي خُلق الليل والنهار من أجله، فلا يُرخي الليل سدوله إلا وقد سحب اللهو ذيوله، وتمشَّت البلادة في عظام المرء حتى تترقى إلى هامه، وتثلم العقل، فيُخلع ثوب الوقار، ويُلاطف بعبث مشين في سفسفٍ أو باطل من الأمر.

ومن ثم تعد تلك السجايا من السياحة الجاذبة، وكم يقال حينها: هل للساهر بمثل هذا من نُجح، وهل لليله من صبح؟، هيهات ثم هيهات، فتلك ليال قُصّ أجنحتها، وضل أصحابها، وكيف يُرجى تقطيع ليال وافية الذوائب، ممتدة الأطناب بين المشارق والمغارب ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**﴾ [يونس: ٦٧]، ولا بدع حينئذ إذا عُكست آمال هؤلاء، وخابت أعمالهم، فلم يرجعوا من سياحتهم إلا بنفاد المال في الدنيا، وسوء المغبة في الأخرى.

قال أبو حامد الغزالي في إحيائه: «وأما السياحة في الأرض على الدوام فمن مشوشات القلب إلا في حق الأقوياء» ثم أخذ يبين أضرارها على البعض فقال: «استخفوا عقولهم وأديانهم من حيث لم يكن قصدهم إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت، فلم يكن لهم حكم نافذ ولا تأديب نافع فلبسوا المرقعات واتخذوا في الخانقاه متنزهات، وربما تلقفوا ألفاظًا مزخرفة من أهل الطامات فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في

خرقتهم وسياحتهم وفي لفظهم وعبادتهم ومن آداب ظاهرة من سيرتهم، فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا ويعتقدون أن كل سوداء تمرة، فما أغزر حماقة من لا يميز بين الشحم والورم؟!! فهؤلاء بغضاء الله فإن الله تعالى يبغض الشاب الفارغ. ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ.

ثم قال أيضًا: «وإن حظوظهم التفرج عن كرب البطالة بمشاهدة البلاد المختلفة وهذه الحظوظ وإن كانت خسيسة فنفوس المتحركين أيضًا لهذه الحظوظ خسيسة. يقول ابن مفلح في الآداب الشرعية: «قال ابن الجوزي: السياحة في الأرض لا لمقصود ولا إلى مكان معروف. منهي عنه. وقال الإمام أحمد: ما السياحة من الإسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين، ولأن السفر يشتت القلب. وقد سئل مرة: ما تقول في السياحة؟ قال: لا، الترويح ولزوم المسجد».

إننا - أيها المسلمون - نحتاج حقيقة إلى مصارحة مع أنفسنا، وإلى استحضار عقول وقلوب ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إننا لنسائل روادَ السياحة، بأوضح صور الصراحة فنقول لهم: أفيدونا يا هداكم الله، ما هي إيجابيات السياحة، وما هي سلبياتها؟

والجواب: أن ظننا فيهم أن يقولوا: إيجابياتها تكمن في التعرف على البلدان، ومعرفة حضارات الأقوام، ومشاهدة المناظر الخلابة، والآثارالعامرة، والرابع يقال على استحياء قتل الأوْقات ومجاراة الناس.

وأما السلبيات، فسيجيب عنها غيورون عقلاء على أنها لا حصر لها، غير أن من أبرزها: السفر إلى بلاد الكفر، والتي نهانا النبي ﷺ عن الإقامة بها، وكذا السفرَ بلا محرم عند البعض، ومثله التساهلَ في الحجاب بالنقص منه، أو نزعه بالكلية، وكذا رؤية المنكرات، كالعري والاختلاط بين الجنسين، ورؤية الكفر بالله ورسوله، وانتهاك محارم الله، وقولوا مثل ذلك في الإسراف والتبذير، ناهيكم عن البعد عن جو الإيمان، وطاعة الله، فلا

أذانٌ يسمع، ولا قرآنٌ يتلى، ولا ذكرٌ لله إلا ما شاء الله.

ومن دعته محبته لله إلى أن يؤدي فريضة الله فعلى استحياء أوتخوف، أو في أماكن صخب يتعسر معها معرفةُ القبلة، أو وقت الصلاة، أو أن يفقه مما أدى شيئًا، وأما ندرة الطعام الحلال فحدثوا عن ذلك ولا حرج، إضافةً إلى خطورة ما ذكر على الأطفال والشباب والفتيات، بما يعلقُ في أذهانهم من حب اللهو، والإحساس بأن ما عند أولئك خيرٌ مما عندنا، وأننا نعيش في أجواء الكبت والمحاصرة وقيد الحرية، وأمثال ذلك أضعافٌ مضاعفة.

بيد أن الحاصل في الأمر هو أن الإثم في السياحة المزعومة أكبر من النفع، والسلبُ أضعافُ الإيجاب، ولو نظرنا إلى الخمرة، والتي يجمع المسلمون طرًا على تحريمها، يقول عنها جل شأنه: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا** ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وإذا كنا قد ذكرنا آنفًا أن السياحة على وجه العزلة للتعبد منهي عنها، فكيف بالسياحة على وجه اللهو واللعب؟!، ألا إن النهي أشد، والمغبة أسوأ، ولو لم يكن في ذلك إلا أن المرء يذهب بنفسه وذويه إلى بلاد السوء، وأرض المعاصي والكفر بالله، فلا يدرى أيختم له في بلد الإسلام، أم في بلد الكفر؟، أفي جو الطاعة والإيمان، أم في جو المعصية وأماكن اللهو والعبث؟.

والأعمال بالخواتيم، ألا تسمعون يا رعاكم الله إلى ما أخرجه الشيخان في صحيحهما عن النبي ﷺ في قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، وأكمل المائة براهب، حتى أتى عالمًا، فقال له العالم: «**ومن يحول بينك وبين التوبة؟!، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فجعلوا ملكًا حكمًا، قال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما**

كان أدنى فهو له ، فكان إلى القرية الصالحة أقربَ بشبر فجعل من أهلها» .

فيالله أين أنتم يا عشاق السياحة ، لقد كان مصير هذا التائب الخائف الوجل متعلقًا بمدى قربه من أي القريتين ، ألا ما أصعب الجواب وما أسحق الهوة .

وبعد . . فثم سؤال آخر يطرح نفسه ليَبينَ من خلاله وجهُ التناقض بين مآرب السياح وأرباب السياحة ، وبين ما ألفه بعضهم من جو الحفاظ والتدين ، وصورةُ السؤال هي : يا أيها السائح هل أنت ممن سيقرأ دعاء السفر إذا أردت السياحة في بلاد اللهو؟ ، فإن كان باحثًا عن الحق فسيقول : وهل يغفل المرء المسلم دعاءَ السفر؟ ، قلنا له : فماذا تقول في دعائك؟ ، فسيجيبنا : أقول الدعاء المأثور : «اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . . » ، فنقول له : حسبك قف ، لقد قلتَ : البر والتقوى ومن العمل ما ترضى ، فأين محلُّ البر والتقوى والعمل المرضي في سفرك؟ ، أيكون مشاهدة المنكر برًا وتقوى؟ ، أيكون الجلوس أمام ما يغضب الله برًا وتقوى؟ ، إن ذلك كله مما لا يرضي الله ، وأنت تسأله من العمل ما يرضى ، ألا تدري ما هو البر؟ إن أجمع ما يصوره هو قوله جل وعلا : ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾[آل عمران : ٩٢] ، ألا تدري ما التقوى؟ ، ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة : ٢٧] ، ألا تدري ما العمل الذي يُرضى؟ ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر : ١٠] .

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين ، وليس عيبًا أن يقع امرؤ في الخطأ ، وإنما العيب كل العيب أن يتمادى فيه ويكابر ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية والثبات على دينك ، واتباع سنة نبيك ﷺ ، اللهم ارزقنا من السعادة والطمأنينة والرضا بالمقسوم ما يغنينا عما عند غيرنا ، اللهم اغننا بحلالك عن حرامك ، وبفضلك عمن سواك .

بارك الله لي ولكم . .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فيا أيها الناس: إن ما مضى ذكره حول السياحة يبين المفهوم الصحيح والمفهوم الخاطئ، ما أشرنا إليه من جهة التحريم والنهي، فإن المنع قد يُرفع عند الضرورة الملجئة، بيد أن هناك أمرًا يجدر الاهتمام به، وهو أن هذا المنع لا يدل من قريب ولا من بعيد على ألا يكون للمسلمين ما يسمى على لغة الكثيرين بالتنشيط السياحي، أو بعبارة أخرى أصح: فرص استغلال الأوقات، لأجل أن يستغنوا عن السفر إلى بلاد الكفار أوما يشابهها.

وفي الوقت نفسه لا يفهم من هذه الدعوة أن يكون الحلُّ في استجلاب ما عند غيرنا إلى أرضنا، فتكون الثمرة هي فحسب استبدال المواقع، فيكون حشفًا وسوءَ كيل، بل ينبغي أن يكون الأمر أعظم وأجل، إنه مبني على كوننا مسلمين، نعمل ونسعى ونرتقي من خلال ما شرعه الله لنا، فإنشاءالدورات الصيفية والجمعيات الخيرية من تحفيظ للقرآن، أو تنشيط ثقافي نافع، أو نحو ذلك مما يُستغل به أوقات الجمهور، وإن لزم الأمر فيُقتصر حينئذٍ على المباح؛ إذ ما بعد المباح إلا ما حرم الله، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

مع الحذر الحذر أن تُقلب المفاهيم، وأن تكون صورة التنشيط السياحي مثالاً للهو والعبث، والضج والضجيج، والعزف والطرب، وبذل الوقت

والمال فيما حرم الله ورسوله، فكم من مظاهر عريضة مفتعلة لها ضجيج وطنينٌ يصرع الأسماع والأبصار، تمتد ألوانها إلى أوقات متأخرة ليلاً، ولسان الحال يقول: ياليل هل لك من صباح، أم هل لصبحك من براح، ضل الصباح طريقه، والليل ضل عن الصباح، ثم ينجلي أمرها، فإذا هي هشيم تذروه الرياح.

وإذا كنا نرى السفر إلى بلاد الكفار داءً يجب علاجه، فإن الله جل وعلا لم يجعل شفاء أمة محمد ﷺ فيما حرم عليها، وإن استئناس كثير من الغافلين بما حرم الله لا يعني البتة التطلع إلى تنفيذ رغباتهم، والقاعدة الشرعية المقررة من خلال حديث النبي ﷺ أن من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى الناس عنه.

ألا وإن بذل الأوقات في الغناء واللهو لما حرم الله ورسوله، وكلما كانت المجاهرةُ به أظهر كان الخطر أشدَّ، والخطب أدهى وأمر، «**وكل أمتي معافى إلا المجاهرين**».

عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ**. قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟. قال: **إذا ظهرت المعازف والقينات**» رواه ابن ماجه، والقينات هم: المغنون والمغنيات.

بل إن الأمر سيذهب إلى أبعد من هذا إلى أن يأتي أقوام فيستحلون المعازف والأغاني، على شدة ما ألفوها واستمرؤها، وقل النكير لها، فقال النبي ﷺ: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف**» ذكره البخاري في صحيحه.

وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله على الغناء فقال: ينبت النفاق في

القلب، وقد قال الفضيل بن عياض رحمه الله: الغناء رقية الزنا، وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى الطباع قال: سألتُ مالك بن أنس عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء. فقال: إنما يفعله عندنا الفساق. وقد حكى أبو بكر الآجري وغيره الإجماعَ على تحريمه.

ألا فاتقوا الله أيها المسلمون، وأقلعوا عن معاصي الله في أرض الله، فإن الأجل يحل بغتة، وكتاب الله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

اللهم صل على محمد..

* * *

«شيبتني هود وأخواتها»

الخطبة الأولى

الحمد لله ذي الجلال والكمال ، الكبير المتعال، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، نحمده ونشكره ما استجدت نعمةٌ وبزغ هلال، فسبحان الله وبحمده بالغدو والآصال.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، تحمل من الأذى ونال، وبلَّغ الدعوة إلى الله وقال، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه رجالاً ونساءً وعيال، ورضي الله عنهم وأرضاهم، وعنا معهم إلى يوم البعث والمآل.

أما بعد:

فإن الوصية المطروقة لي ولكم عباد الله هي تقوى الله سبحانه، التي هي العز يوم الذل، وهي النجاة يوم الهلاك، ما خاب من تمسك بها، وما أفلح من ودّعها وقلاها، فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون.

أيها الناس:

إن الناظر في واقع كثير من المسلمين اليوم بعين بصيرته ليوقن أنه واقع

مؤرق، إذ أن صلتهم بكتاب ربهم يكتنفها الهجر والعقوق، بل لربما وصل الأمر إلى أبعد من ذلك، حتى إن أحدنا قد لا يبعد النجعة لو قال: إن علل الأمم السابقة قد تسللت إلى أمة الإسلام لواذًا، من حيث تشعر هي أو لا تشعر، ألا تقرأون يا رعاكم الله قول الباري جل وعلا: ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً، بحيث لا يجاوز حناجرهم وتراقيهم.

وذلك عباد الله بسبب الغياب القلبي، والعجز عن تدبر القرآن، وهم على قلوب أقفالها إلا من رحم الله، وبسبب البعد عن اكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق، وحسن تسخيرها، والتحرر غير المبعَّض من تقديس الأفهام المغلوطة، والتأويلات المآربية، والتي انحدرت إلى كثير من أوساط المسلمين على كافة طبقاتهم، من لوثات علل وأفهام، يغذيها شعور طاغ من حب الدنيا وكراهية الموت.

كل ذلك ـ أيها المسلمون ـ سبب ولا شك لذهاب العلم وهو موجود، ولفقدنا الماء في البيداء، وهو على ظهورنا محمول، على الرغم من التقدم الملحوظ في فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل الصوتي والمرئي.

روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، عن زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: «**وذلك عند ذهاب العلم**»، قلنا: يا رسول الله: كيف يذهب العلم ونحن قرأنا القرآن ونُقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم، فقال: «**ثكلتك أمك يابن لبيد، إن كنتُ لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء**»؟.

إذًا: فالأمة المنتمية إلى القرآن لا ينبغي أن تكون مجهولة مستوحشة، مبعثرة الحواس، وكأنها تنادى من مكان بعيد، وكتاب الله سبحانه ما شانه نقص، ولا شابته زيادة، فيه خلاصة كافية لأحوال النبوات الأولى، وأنباء ما قد سبق ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي **الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ⁽١٨⁾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ**﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

أيها الناس:

لقد عاش رسول الله ﷺ ثلاثة وستين عامًا، أسفر له بعدها صبح المشيب، ألمَّ الشيب بلحيته، وهو سمة عفته وتقاه، ترى فيه هيبته ووقاره، وتشاهد فيه حنكته وعنوان تجربته، يسأله أبو بكر رضي الله عنه فيقول: «يا رسول الله: ما شيبك؟، قال: **شيبتني هود، والواقعة، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت**» رواه الترمذي، والحاكم، وأبو يعلى.

فيالله أيها المسلمون!! إننا لنسمع كثيرًا أن السن سبب في الشيب، وأن صروف الحياة المتقلبة تشيب منها المفارق، فما ظنكم بمن تمر به هذه كلها، واحدةً تلو الأخرى، ثم هو ينسب المشيب إلى آيات من كتاب ربه يرددها، ومعان يتأولها ويتدبرها؟!.

لماذا سورة هود أيها المسلمون؟، ما الذي تحويه هذه السورة كي تحدث تغييرًا في النفس والحال، بله التغيّر الذي يكون على البدن والأعضاء، إن هذا الحديث برمته ليستحثنا إلى أن نكشف اللثام، ونذِّوب الران الذي يغشى القلوب، حينما تمر بنا هذه السورة وأخواتها، دون أن تستوقفنا مليًا، لنعلم بوضوح وجلاء كيف شيبت مفارق إمامنا وقدوتنا ﷺ.

يقول عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: دخلت على امرأة، وأنا أقرأ سورة هود فقالت: يا عبد الرحمن: هكذا تقرأ سورة هود، والله إني فيها منذ ستة أشهر، وما فرغت من قراءتها.

ولا غرو أيها المسلمون أن تقول المرأة مثل هذا، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه قبلها: لا تهذوا القرآن هذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدَّقل، وقفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السورة.

لقد نزلت سورة هود بجملتها بعد سورة يونس وسورة الإسراء، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم من المفسرين، وهذه الفترة التي نزلت بها هذه السورة تُعد من أحرج الفترات وأشدهما كمدًا على نبينا ﷺ؛ لأنها مسبوقة بأعظم حدثين له، فقد توفيت زوجه خديجة بنت خويلد، وكانت وزير صدق في الإسلام، يشكو إليها، وهي معه في المحنة قلبًا مع قلبه العظيم، بمالها تواسيه، وبكلامها تسليه، وتوفي عمه أبو طالب، وكان له عضدًا ومنعة وناصرًا على قومه، حتى تتابعت على رسول الله ﷺ المصائب، فسمي ذلك العام عام الحزن.

فكان نزول سورة هود في مثل هذه الفترة تسلية وتثبيتًا له ولمن معه من المؤمنين، وتسريةً عنه وعنهم، مما يساور قلوبهم من الوحشة والضيق والغربة، في مجتمعات تكاد تجمع على تكذيبهم والبطش بهم، ومن ثم يكون وقع مثل هذه السورة منصبًا على القصص والأمثال، لأن فيها من التسلية والعبرة، وشد العزم، والحض على الصبر والمجاهدة ما ليس في غيرها، فيرى السورة برمتها، تتحدث عن نوح وقومه، وشعيب وقومه، ثم موسى مع فرعون وملئه، جملة من الأنبياء، ثلاثة منهم من أولي العز م من الرسل، يواجه اللاحق منهم مع قومه مواقفَ مشاكلةً لما واجهه السابق منهم، ويصدق في الجميع قوله جل وعلا في سورة يوسف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

يشير سبحانه إلى أن مرحلة اليأس ربما تكون بعد تتابع ضربات الجهال، والوقوع تحت وطأة الشتم والتكذيب، والإجماع على التآمر، ناهيكم عن اختناق أنفاسهم فترات يتعرضون خلالها للموت كرات ومرات، ليكن ذلك كله، فإن سنة الله لا تتخلف، وخليق بأنبياء الله ورسله وأتباعهم أن يصابروا ويرابطوا، حتى يأذن الله بالفرج.

لقد افتتح الله جل وعلا سورة هود بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود: ١، ٢]، إن هذا الكتاب الذي أحكمت آياته فسر مضمونه، بأنه ينبغي ألا يُعبد إلا الله في الأرض، وأن هذه العبادة والدعوة إليها لم تكن بدعًا من الدعوات، ولا هي وليدة نزولها على محمد ﷺ، إنما هي دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم، كلهم يقولون لأقوامهم ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، فلا ذبح إلا لله، ولا رجاء إلا من الله، ولا خوف إلا منه، ولا استغاثة واستعانة إلا به، ولا توكل إلا عليه، ولا رغبة ولا رهبة إلا له ومنه، ولا يحكم إلا شرعه الذي شرع.

بعد هذه الآية يتتابع القصص، فيكون من حوارات نوح وقومه أن قالوا له: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧]، ويقول محمد ﷺ مثل ما قالوا: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

إنه الاحتقار والازدراء الذي ينبعث من النفوس الخبيثة المليئة بالضغينة والكبر، الذي هو بطر الحق وغمط الناس، احتقارٌ لصاحب الرسالة من أولي العزم من الرسل، يتبعه ازدراء مشين للأتباع المخلصين، إنه ليس عارًا البتة رذالة من اتبعوا الحق، فإن الحق في نفسه صحيح، سواء اتبعه الأشراف

أو الأراذل.

يقول ابن كثير رحمه الله: بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء».

ولما سأل هرقلُ ملك الروم أبا سفيان عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: «أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟، قال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل».

لو كان الاتباع بالشرف - أيها المسلمون - لما رفع الإسلام سلمانَ الفارسي، ولما وضع الشرك الشقيَّ أبا لهب، ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»، ولما رأى الصحابة رضي الله عنهم عبد الله بن مسعود وهو على نخلة فضحكوا من دقة ساقيه والريح تميل بهما، فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون من دقة ساقيه، إنهما أثقل في الميزان من جبل أحد**».

إن أمثال هؤلاء المحتقرين من قبل بعض أهل الزهو والأنفة وذوي الترف، لتعلو بهم المكانة في الآخرة جراء إيمانهم بربهم وتوكلهم عليه، على ضعف في قوتهم، وقلة الناصرين لهم من الناس، حتى ألفوا مسلك النزاهة والاستقامة، لأن الرجل الخَربَ الذمة، الساقط المروءة لا قوة له ولو لبس جلود السباع، وتسربل بدروع المحارب المدجج، أو مشى في ركاب العظماء من بني الدنيا.

وهذا درس جد مهم، ضرب الله لنا مثله حينما قال لوط عليه السلام: ﴿**قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ [هود: ٨٠]، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**رحمة الله على لوط، لقد كان يأوي إلى ركن شديد**» - يعني الله عز وجل -.

فــلا إلـه إلا الله، كم سيصيب محتقريهم من هم وغم، حين تتجلى الأمور وتنكشف، ويدخل أهل النار النارَ، فيقولون حينها: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢، ٦٣]، والجواب يا رعاكم الله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

في ثنايا سورة هود يعترضنا قصص هو من الأهمية بمكان، تبين من خلاله صدق المدعى، وصفاء قلبه، وحبه المتجرد من الغشش والدخيلة، تجاه إخوانه في الدين وبني ملته، حيث يحب لهم ما يحب لنفسه، يعلم خطورة خذلانهم، وعظم ذلك عند الباري جل وعلا، يعلم أثر قول المصطفى ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، ويعلم قوله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يُسلمه».

هذه المبادئ الراسخة ينبغي أن يعيها كل مسلم تجاه إخوانه في الملة، إنه موقف نوح عليه السلام من أتباعه المؤمنين حينما قال لقومه: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩، ٣٠].

يقول ابن كثير رحمه الله: «كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشامًا ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جملة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسًا خاصًا، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

إن المسلم الحق لينأى بنفسه أن يصنع حظوظه على الإضرار بإخوانه، من

خلال الحسد أو التشفي، أو إيثار العاجل على الآجل، أو أن يبني كيانه من بلغته على أنقاض غيره وشقوته، كلا، هذا تدين وانتساب للإسلام مغشوش، إنه عندما يضع نفر من الناس مآربه في الثراء والجمع على ثروة مسروقة، أو أرض منهوبة، فهيهات هيهات أن يتمخض هذا البدء المهتز عن نهاية صالحة، إنه في الحقيقة كمسلك إخوة يوسف عندما نشدوا راحتهم بقولهم: ﴿**اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ**﴾ [يوسف: ٩]، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**من أكل برجل مسلم أكلة، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن كسي ثوبًا برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء، فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة**» رواه أحمد وأبو داود.

ولا يسعنا إلا أن نقول كما قال النبي ﷺ: «**اللهم إنا نعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، ونعوذ بك من الخيانة، فإنها بئست البطانة**».

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة..

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا يليق بجلاله وعظمته، لا أحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فيا أيها الناس: قصص آخرُ من قصص سورة هود، يراد من خلاله التنويه إلى أهمية القدوة الصالحة، وأثرها في بناء المجتمعات ورفعتها، لاسيما إذا كان أصحابها من ذوي الهيئات، كالسلاطين والعلماء والأمراء وكبراء الناس.

ويزداد الأمر قوة في المصلحين، ومن ينتسبون إلى الصلاح، إذ خطواتهم محسوبة، وأفعالهم مرقوبة، وأعين الناس تقع على ما يظهر منهم في القول والفعل.

فما أعظمها هوة، حينما يرونه من حيث نهاهم، ينكر منكرًا فيأتي مثله، أو يحذر من بدعة ويقع في أختها، تسقط هيبته، ويتضاءل الاقتداء به، فيخلط العامة بين حقه وباطله، وزينه وشينه، ومن ثم تكون حالات الناس معه يمانيًا إذا لاقيت ذا يمن، وإن لقيت معديًا فعدنان، فيكثر تتبع الرخص من قبلهم، والتشوف إلى الزلات والثغرات.

لقد تمثل النأي عن ذلك في شخص النبي شعيب عليه السلام حين قال لقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

وبعد أيها الناس: فإن القصص في السورة يتتابع، والنهل منها في مثل هذه العجالة يطوِّل بنا المقام، إلا أن ثمة أمرًا يحسن أن نختم به، وهو أن الرسل جميعًا قد دعوا أقوامهم إلى الله، فلما لم يستجيبوا لهم تنوع عليهم العذاب، فمنهم من أرسل الله عليه حاصبًا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسف الله به الأرض، ومنهم من أغرق، وبعد تمام السرد يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٠]. ثم يقول: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ [هود: ١٠٢].

ثم يتجه الخطاب إلى النبي ﷺ مرة أخرى بهذا الإنذار الذي فيه التحذير من الريبة أو الشك في صحة ما يدعو إليه ﴿ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ** ﴾ [هود: ١٠٩].

إن توفية هذا النصيب تعني هلاك من بلغتهم الرسالة ثم هم يعاندون، فإنهم سيطيحون كما طاح آباؤهم من قبل، ألا إن هذا نذير مقلق، وإن خوف النبي ﷺ على مستقبل أمته وقومه جعل الشيب يتسلل إلى رأسه، ما يحب أن يكون لهم مثلُ هذا المصير المزهق، ولذلك قال النبي ﷺ لصحبه: «**كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى**، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟، قال: **من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**».

اللهم صل على محمد..

* * *

«نحن والقسوة»

الخطبة الأولى

إن الحمد لله، المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا، المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرًا وتدبيرًا، المتعالي بعظمته ومجده الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا.

نحمده على ما وفق له من الطاعة، وذاد عنه من المعصية، نسأله لمنته تمامًا، وبحبله اعتصامًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تعلي الدرجات، وتنجي من الدركات، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه ربه حين لا عَلَمٌ قائم، ولا منارٌ ساطع، ولا منهجٌ واضح، فصدع بالحق، ونصح للخلق، وهدى إلى الرُشد، وأمر بالقصد، صلى الله وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه، فإنها عُدة وسلاح،

وبلوغ ونجاح، هي أنيسٌ عند الوحشة، وكثرة عند القلة، وهي النجاة بأمر الله إلى يوم يُبعثون، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

أيها الناس:

لقد عُلِّق بنياط هذا الإنسان بَضعةٌ هي أعجب ما فيه، وأرجى ما يُحييه، هي أسٌ في خُلُقه، ونكتةٌ في خَلْقه، لها موادٌ من الحكمة، وأضداد من خلافها، بتمامها وصفائها يَميزُ اللهُ الخَبيثَ من الطيب، والأبيضَ من الأسود المرّباد المجخى، صلاح الجسَد بصلاحها، وفساده بفسادها، إنها مضغة صفيقة يسمونها القلب.

قلوب البشر - عباد الله - كغيرها من الكائنات الحية التي لا غنى لها طرفة عين عن أي مادة يكون بها قوام الحياة والنماء، وعقلاء البشر كافة متفقون صراحة على أن القلوب البشرية ربما صدئت كما يصدأ الحديد، أو جفّت كما يجفُّ الضرع، ولربما تولد منها الرماد كما يتولد الإحراق عن النار، فهي تحتاج إلى تجلية وري وصقال، يزيل عنها الظمأ، والأصداء؛ وليكون القلب بعدها قلبًا لينًا طريًا، يهش أمامه ويُبش، وإلا كان قلبًا قاسيًا، فظًا غليظًا، اكتسى ثوبَ قسوة مدمرة، لا يَهُش له الناظر؛ بل تغض منه العيون، وتنبو عنه الأفئدة الحية، وينفضُّ الناس من حوله، وما سُمي القلب إلا أنه يتقلب، وحينئذ يكشف المضمار عن ستاره المسدل في الصراع المحموم بين القلب القاسي والقلب اللين.

والمعلوم المشاهد أن لسان اللَّيِّن وراء قلبه كما أن قلب القاسي وراء لسانه، إذ إن اللَّيِّن القلب لا يطلق لسانه أو جوارحه إلا بعد مشورة الرَّوِّية

ومؤامرة الفكرة، والقاسي قلبه تسبق حذفاتُ لسانه، وفلتاتُ كلامه، وعجرفةُ جوارحه مراجعةَ فكره، أو مماخضةَ رأيه.

القسوة ـ عباد الله ـ: كشف العلماءُ مفادَها، وبينوا مداها ولبابها، وحاصل بيانهم أن القسوة هي غِلَظُ القلب وتصلُّبه، ونَبْوَتُه عن اتباع الحق، وشدتُه ويُبسه.

وهي خصلة من خصال اليهود والمشركين، ذمهم الله عليها بقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وفي قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وفي قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

القسوة ـ أيها المسلمون ـ: نقص في طبيعة المرء، وارتكاس بالفطرة إلى منزلة السبُع البهيم؛ بل إلى منزلة الجماد الأصم الذي لا يعي ولا يهتز، فخليق بالمرء أن يتصون عنها، ويأخذ حذره منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

أما اللين والدعة فهما كمال في طبيعة المرء، وتمام يرقى به، ويكون حيًا نابضًا بالحب والرأفة، التي عزّت وأعوزت في غير ما مجتمع:

ولم يُرَ في عيوبِ الناس عيبٌ كنقص القادرين على التمامِ

المرء القاسي القلب هو الذي تستعبده الفظاظة الغائلة، والغظاظة الغالبة، ويتحكم في أعماله وآرائه وتوجهاته، عنت صلد، به يخبو قبسه، ويكبو فرسه، فيجر معه متاعب الدنيا والآخرة، إذ لا يقسو على الناس إلا مَنْ هو معجبٌ بنفسه وطبعه، حتى إنه ليُرى منه ما يخشى ويتقى، وما لا يرى مما هو خفي أطم وأدهى.

وعُجْبُ المرء بنفسه هو أحد حصاد عقله؛ لأنه به يرفع كل خسيس، ويخفض كل حلو نفيس؛ كالبحر الخضم، تسفلُ فيه الجواهرُ والدرُ، يطفو

فوقه الخشاشُ والحشاشُ، أو كالميزان يرفع من الكفة ما يميل إلى الخفة.

وما رؤي أحد قسى على من هو دونه إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه، ناهيكم عن أن من أعظم العاقبة ألا يحس المعَاقَب بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة؛ كالفرح بقساوة القلب، والتمكن من الذنوب، يقول مالك بن دينار رحمه الله: «ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم».

القسوة - عباد الله - : لا تبرح مكانها، وماذا عساها أن تنفع؛ بل ليس لها إلا ما قال معاوية رضي الله عنه: «ما قسوتي على مَنْ أملك وأنا قادر عليه، وما قسوتي على مَنْ لا أملك ويدي لا تناله»، إنه لا غنى كاللين، ولا فقر كالقسوة، وليس بخاف علينا أن الفقر كاد يكون كُفْرًا.

ألا فليت شعري ما الذي يحمل المرء على أن يقسو قلبه؟!..

أهو فطرة يفطر عليها القاسي فيدعي جبليتها؟!، كلا.. فالله جل شأنه يقول: «**خلقتُ عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**».

أم هي نقيصة يجدها المرء في نفسه، ثُمة يسدها بغلظة وعنف يحتال بهما على نفسه؟!.. ربما.

أم هو الحسد والتشفي وحب الذات؟!.. ليس ببعيد..

أم هو سَوْرَة كسَوْرَة الخمر، تأخذ شاربها حتى ينتشي، فإذا انتشى عاود حتى يصير مدمنًا، لاَ يفيق من نشوة القسوة حتى يستوي حال الخُمار والإفاقة فيتولع بالقسوة حتى يقسو، فإذا به لم يطق، فهو كمن رأى لجة فظن أنها موجة فلما تمكن منها غرق؟!.

وأي ذلك كان فإن القسوة خِلة مرذولة، وخصلة مستهجنة، ووسم

تعلق به نار الحدادين، وكثيرًا ما تطيش قسوة القلب بألباب ذويها، فتُدلي بهم إلى اقتراف ما هو مُسقط للمروءة، ثم إن عين القاسي تنظر من زاوية داكنة، فهي تعمى عن الفضائل؛ بل قد تصل إلى التخيل وفرض الأكاذيب؛ لأنه ربما فشل حيث نجح غيره، وربما تخلف حيث سبق آخرون، ومن ثم تغلي مراجل قسوته في نفسه؛ لأنه ينظر إلى الدنيا فيجد ما تمناه لنفسه قد فات، وامتلأت به أكفُ أخرى، وهذه هي الطاقة التي لا تدع للعين قرارًا.

لقد طغى طوفان المادة الجافة، فأغرق جسوم اللين والدعة إلا ما انملص منه، وقد بدت مفاهيمُ الحياة عند من ابتُلوا بذلك: «إن لم تكن ذئبًا أكلتكَ الذئاب، وإن لم تجهل يُجهل عليك، وإن لم تتغدَ بزيد تعشى بك».

ألا إن القلب يقسو ويغلظ في المجتمعات التي تضج بالصخب والعطب والمرح الدائم، وفي ثنايا الآفاق الزاهرة، والنعم الباهرة، وكثرة القيل والقال، يقول النبي ﷺ: «**إن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب**» رواه الترمذي في جامعه.

وبمثل ذلك يتنكر القلب لآلام الجماهير.. ونداءات التصحيح.. وترميم البناء.. المنبعثة من القلوب الحية هنا وهناك، والناس في الحقيقة إنما يُرزقون القلب اللَّين عندما يتقلبون في أحوال الحياة المختلفة، عندئذ يحسون بالوحشة مع اليتيم، والشفقة مع المظلوم، والفقدان مع الثكلى، والنصّب مع ذي المسغبة، واستبانة النصح الصادق قبل ضحى الغد، شكا رجل إلى رسول الله ﷺ قسوةَ قلبه فقالَ له: «**امْسح رأسَ اليتيم، وأطعم المسكين**» رواه أحمد.

إنه ليس أروحُ للمؤمن، ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه، من أن يعيش لَيْنَ القلب غير قاسي، مبرأ من وصمة الضغينة وثوران القسوة، فإن قسوة القلب داء عياء، وهو في الوقت نفسه داء منصف، يفعل بالقاسي كما يفعل

بالمقسي عليه، وما أسرع ما يتسرب الإيمان من القلب الغليظ، كما يتسرب السائل من الإناء المثلوم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله: أي الناس أفضل؟، قال: «**كل مخموم القلب، صدوق اللسان**، قيل: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟، قال: **التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غَل ولا حسد**» رواه ابن ماجه.

ألا إن من لان قلبه كان أصيلَ الرأي، عليَّ الهمة، رفيعَ المقصد، باعثًا في نفسه اللينة روحَ النخوة، وإباء الضيم، ومحبة القريب والبعيد، في حين إن لينَه لم يبرح سامعًا، وقدَره لَم يزل موافقًا، ومَن قسى قلبه صار سيئ الطَبع، سافلَ الهمة، مغتلمًا، ضيق العطن، شرهَ النفس، يودي بغيره إلى مهاوي رديئة، ويضرب على ناظره بغشاءالجهل ومَضض الرعونة، والنتيجة ثَمَّ غائلةُ الفاقة، التي تقضي على مجامع حسن القلب، ورسول الله ﷺ يقول: «**إن القلب القاسي بعيد عن الله**» رواه مالك في الموطأ.

ومَنْ هذه حاله ـ عباد الله ـ حريٌّ أن يكشفه اللهُ على رؤوس الخلائق، فلا يُشفَّع إذا شفع، ولا يُستجاب له إذا دعا، ولا يوفق إذا مضى.

اجتمع ناس من البصرة إلى إبراهيم بن أدهم، فقالوا له: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟!، فقال: يا أهل البصرة.. قد قست قلوبكم، فكيف يُستجاب لكم؟!.. عرفتم الله فلم تؤدوا حقه.. قرأتم القرآن ولم تعملوا به.. ادعيتم حب الرسول ﷺ وتركتم سُنَته.. قلتم: الموتُ حق، ولم تستعدوا له، اشتغلتم بعيوب الناس وتركتم عيوبكم.. أكلتم نعمة الله ولم تشكروه عليها..!

أيها المسلمون.. لقد انساق فئام من الناس مع قسوة القلب، فقَصَّروا في جنب كتاب الله، فلم تقشعر قلوبهم عند تلاوته، وكأنما قد قُدَّت من

صخر صلد، فأدبرت، والناس بين إقبال وإدبار، مواعظ تُتلى، وعبر تُسمع وتُقرأ، ولكنها تدخل من اليمنى وتخرج من اليسرى، إلا من رحم الله، حتى ماتت القلوب وهي حية، وعاشت وهي ليست شيئًا مذكوراً، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله استبطأ قلوبَ المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن بقوله: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [الحديد: ١٦].

فيالله.. ما ثلاثة عشر عامًا من نزول القرآن أمام خمسة عشر قرنًا من الزمان.. ألا إن البون شاسع، والقسوة أغلظ.

لقد انساق فئام من الناس مع قسوة القلب، فلم يستمعوا لواعظ، ولم يستجيبوا لناصح، آذانهم كالأقماع، وقلوبهم كالحجارة، أين هم من قول النبي ﷺ: «**ويل لأقماع القول، ويل للمُصرِّين**» رواه أحمد.

لقد انساق فئام من الناس مع قسوة القلب حتى تطاولوا بها على من يحمل اسمَ الجار، أو منْ له حق الجوار أو أخوة الدين، فآذوا وأبدوا أعراضهم للشتم، وكشفوا سوءاتهم للسب جراء قسوتهم، كما فعل النبي ﷺ مع مَنْ جاء يشكو إليه قسوة جاره، فقال له النبي ﷺ: «**انطلق فأخرج متاعَكَ إلى الطريق**»، فانطلَقَ فأخرج متاعَه، فاجتمع الناسُ عليه، قالوا: ما شأنُك؟، قال: لي جار يؤذيني، فجعلوا يقولون: اللهم العنه، اللهم أخزه، فبلغه فأتاه فقال: ارجع إلى منزلك، فوالله لا أوذيك. أخرجه أبو داود وابن حبان.

فلله.. كم من قاسي القلب، تودي به قسوته إلى ما ترون، وهل تأتي القسوة إلا بمثلها أو بأقسى منها، عُرِضَ على أحد السلف فرسٌ جواد، فقال

لمن حوله: لماذا يصلح هذا الفرس؟، قالوا: نغزو عليه العدو، قال: ألا إنه يركبه الرجل فيهرب عليه من الجار القاسي.

لقد انساق فئام من الناس وراء قسوة القلب، فقسى الأب على ولده، حتى لو نطق قلبه لرشقه بسهام الشتيمة، ناهيكم عن ضرب اليد وشتم اللسان، أو مفاضلة بعض الأولاد على بعض، أو إعطاء هذا ومنع ذاك حتى تضيق الأرض بهم، أو لم يصبحوا في البر سواء، دخل الأحنف بن قيس على معاوية رضي الله عنه، ويزيدُ بين يديه، فقال: يا أبا بحر.. ما تقول في الولد؟، فقال: هم عمادُ ظهورنا، وثمرُ قلوبنا، وقرةُ أعيننا، بهم نصولُ على أعدائنا، وهم الخَلفُ لمن بعدنا، فكن لهم أرضًا ذليلة، وسماء ظليلة، إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم، لا تمنعهم رفدك فيملوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك، فقال معاوية: لله درك يا أبا بحر، هم كما وصفتَ!، وقولوا عباد الله مثل قول أبي بحر في حق الزوجين أو الوالدين، أو الأقربين.

أيها الناس:

قسوة القلب متفشية، ومُدَّعُو اللين والدعة كثير من بني آدم، ولكن القلب والجوارح، وشواهد الحال في أشياع الناس تصدق ذلك أو تكذبه ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ** ﴾ [البقرة: ٢٠٤: ٢٠٦].

ألا ما أروع المثل الذي ضربه لنا في ذلك أبو حاتم البستيُ رحمه الله، عن أحد شيوخه: أن صيادًا كان يصطاد العصافير في يوم ريح، قال: فجعلت الرياحُ تُدخلُ في عينيه الغبارُ فتذرفان، فكلما صاد عصفورًا كسر جناحه وألقاه في ناموسه، فقال رجل لصاحبه: ما أرقه عليهم.. ألا ترى دموع

عينيه؟! . . فقال الآخر: لا تنظر إلى دموع عينيه ، ولكن انظر إلى عمل يديه!! .

أيها الباكي علينا	لا تزد فينا شقانا
إن رويت الأرض دمعًا	لا نرى الغيث سقانا

ألا فيتق امرؤ ربه ، ولا يبقين للقساوة محلاً في قلبه ، فإنما اللين بالتلين ، واللطف بالتلطف ، ولا يضر طول الغشاوة ، إذا صدقت النية وصح العزم ، وقديمًا قيل: إن الماء وإن أطيل إسخانه ، ليس بمانعه من إطفاء النار إذا صُبَّ عليها . . ورحم الله امرءًا محمود السيرة ، طيب السريرة ، محا عنه أثرَ القسوة فعفَّاه ، وأعفاه من معاناة ألمه .

ولا أدل على ذلك ولا أروع من متحدث عن نفس جرَّب الحالين في جاهلية وإسلام ، يقول الفاروق رضي الله عنه وأرضاه: «اعلموا أن تلك القسوة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين ، والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم البعض ، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا ، أو يعتدي عليه ، حتى أضع خده وأضع قدمي على الخد الآخر ، حتى يذعن للحق ، وإني بعد قسوتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف» ، ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح ٢٩] .

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة . .

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمد مَنْ يشكر النعمة، ويخشى النقمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد والمنة، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، معلمنا الكتاب والحكمة، عليه وعلى أصحابه من الله أفضلُ صلاة وأزكى تسليم.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، ثم اعلموا: أن القسوة التي استنكرها الإسلام إنما هي جفاف في النفس لا يرتبط بمنطق ولا عدالة، إنها نزوة بغيضة، تتشبع من الإساءة، وتستسمن من الإيذاء، وتمتد مع الأثرة المجردة والهوى الأعمى.

وهذا كله - عباد الله - لا يتعارض مع كون القسوة والشدة مطلوبة في بعض الأحايين، وفق ما أراد الشارع الحكيم؛ لأن ذئاباً من البشر وسوساً أبوا إلا اعتراض اللين والرحمة، ووضع الجنادل في مجراها حتى تنقطع عند الناس مواردها، فقتلوا وسرقوا، وزنوا، وشربوا الخمرة، وقذفوا، فلم يكن بد من إزالة هذه العوائق والشوك، والإغلاظ على أصحابها إذ هم الذين حرموا أنفسهم اللينَ والرحَمةَ، ألا ترون الطبيب يفعل ما يفعل بالمريض من تمزيق اللحم، وتهشيم العظم، ما يفعل ذلك إلا شفقةً به ورحمةً، على حد قول القائل:

فقسا ليزدجروا ومن يك راحمًا　　　فليقس أحيانًا على من يرحم

فلابد من إقامة الحدود، وإنفاذ شرع الله على مستحقيه، وليس للشفقة

واللين محط هنا إلا حال تنفيذ العقوبة وفق ما أراد الشارع الحكيم، وعلينا ألا نغتر ببروق منظمات حقوق الإنسان التي تصف إقامة حدود الإسلام بأحد ما يضعون من ألفاظ مسفة، مع سيل جارف من تهم التخلف والتعجرف، أو الوحشية والعنجهية البشرية، في حين إن النتيجة الحاصلة من مثل مناهجهم الضالة هي حماية حقوق الإنسان المجرم، في أمور بيّن لنا الشارعُ الحكيم أن قوام الحياة بها، وأنه لا يستقيم عود المسلمين إلا بإنفاذها ونفاذها، وأن الحياء منها أو من التفاخر بها، أو إقامتها على تخوف عجز وخور، وإعجاب بما عند الأجنبي عن ملتنا، وإن استبدال الحرية الشخصية بها اضطراب في العقل، وتدن في المقاييس، وإخلال بالنواميس البشرية، ثم هي قبل ذلك كفر بفاطر السماوات والأرض، إذ:

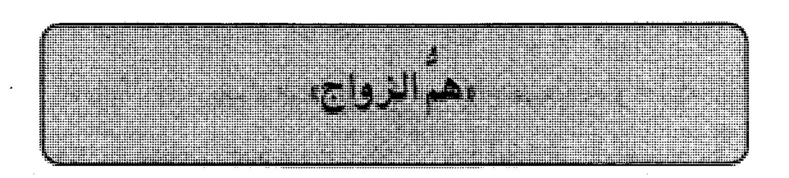
وضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

ولذلك استعان رسول الله ﷺ بالشدة في مواضعها، حينما تنتهك حدود الله فينتقم لله، فقد قسا: مع من تختم بالذهب، ومع الذين مسحوا الأرجل أثناء الوضوء، ومع الإمام الذي أطال في الصلاة دون مراعاة لأحوال المأمومين، وعلى أبي ذر حينما سبَّ غُلامَه، ومع عمر بن الخطاب حينما سمعه يحلف بأبيه.

والقدح المُعلا في ذلك.. وقصب السبق.. قوله ﷺ: «**وايم الله لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها**».

اللهم صلِّ على محمد..

* * *



الخطبة الأولى

الحمد لله الذي لا إله إلا هو، المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا، المتفردُ بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرًا وتدبيرًا، المتعالي بعظمته ومجده، الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، سبحانه لا يحاط بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيهُ السماوات والأرض، لا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا جبلٌ ما في وعره، ولا بحرٌ ما في قعره، يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذن وسراجًا منيرًا، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه الأتقياء الطيبين، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون.

أما بعد:

فإن الوصية المبذولة لي ولكم - عباد الله - هي تقوى الله سبحانه في سركم وعلنكم، في الغيب والشهادة، في الغضب والرضى، ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ

الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، الذين تدفعهم تقواهم إلى تقديم مرضاة ربهم على رضاء خلقه وعبيده، إن العاقبة للمتقين.

أيها الناس:

لقد أشرق الإسلام بتعاليمه وآدابه السمحة، فأقر كل خير وجد في الأخلاق الأصيلة، وغسلها مما علُق بها إبان القرون من الأوضار الدخيلة، والعَلوق المرذلة. لقد بعث الباري جل وعلا مصطفاه وخليلَه ﷺ لحفظ مصالح الخلق ومقاصدهم، وسدَّ كل ذريعة تخدش دينهم أو تهز كيانهم، ولأجل هذا الأس، شرع الله الجهادَ لحفظ الدين، والقصاصَ لحفظ النفس، وحدَّ السكر لحفظ العقل، وحدَّ الزنا لحفظ العرض، وحدَّ السرقة لحفظ المال، وعقدَ الزوجية لحفظ النسب.

إن الله سبحانه خلق الناس طرًا، من أبوين اثنين، ليجعل من هذه الرحم ملتقى تتشابك عنه صلاةٌ بني آدم، وتستوثق عراهم ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢].

لقد فطر اللهُ الناس على حب غريزتين، كل منهما مكملةٌ للأخرى، أولاهما غريزةٌ لبقاء ذاته، وأخراهما غريزة لبقاء نوعه، فبالأولى يسوقه لَذْعُ الجوع وفورَة العطش إلى تحصيل الطعام والشراب، دفعًا بالري والشبع لما قد يكون، وبالثانية تسوقه نار الشهوة المتأججة إلى تحصين فرجه؛ ليحفظ بالحلال نسلَه وعرضه، وكما يأكل المرء باسم الله، كذلك يباشر زوجه باسم الله، وبانضمام النية الصالحة إلى هذه الأعمال المعتادة وهي شهواتٌ، فإنها تكون عبادات متقبلة.

إن الإنسان الذكرَ نصف وحده، ما يبلغ يومًا تمامه إلا إذا انضم إليه

نصف آخر، يلقى به ربه على أحسن حال من الطهر والعفاف، وفي كثرة نسله من هذا النصف الآخر مصلحة خاصة وعامة، يساعدان على تكثير سواد الأمة، واتساع بيضتها، يقول المصطفى ﷺ: «**تزوجوا الولود الودود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**» رواه أبو داود، والنسائي.

وفي المثل المطروق: إنما العزة للكاثر، ولا تزال هذه حقيقةً قائمةً لم يطرأ عليها ما ينقضها.

أيها المسلمون:

صح عند البخاري في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها حديثٌ مفاده أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: نحو هو النكاح المعروف، ونحو يسمى نكاح الاستبضاع، وهو أن يرسل الرجل امرأتَه إلى من يطؤها؛ لأجل أن يؤثر ذلك في نجابة الولد، والنحو الثالث أن يجتمع الرهط على امرأة واحدة، كل منهم يطؤها، فإذا حملت جمعتهم ونسبت الولد لمن تشاء منهم، فلا يستطيع أن يمتنع، والنحو الرابع نكاحُ البغايا اللاتي ينصبن الرايات على أبوابهن، فإذا حملت ووضعت دعوا لها القافة، وهم الذين يُشبهُون الناسَ، ثم يلحقون الولد بالذي يرون فلا يمتنع، فلما بعث محمد ﷺ هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم.

إن في البلاد المسلمة اليوم مشكلات عويصة، من أعضلها وأعمقها أثرًا في حياةً الأمة المسلمة مشكلةُ الزواج، والتي تتلخص في كلمات هي أن في المسلمين آلافًا مؤلفة من البنات في سن الزواج، لا يجدن الخاطب، وألوفًا أخرى مشاكلَةً من الشباب لا يجدون البنات، أو لا يريدون الزواج، أو يعسر عليهم تَحصيلُهُن على وجه السهولة واليسر.

وهذه المشكلة الظاهرة إن لم ينتبه إليها عقلاء المسلمين ممثلين في

القيادات والعلماء، والدعاة والتربويين، وأصحاب الكلمة السيالة والمسموعة، ويفتحوا لها طرق العلاج بالحلال، وهي ميسورة لراغب، والعناقيد دانية لمن أراد قطفها، لا ينقصها إلا يد تمتد إليها فتأخذها، لتجرعتها المريض، ولكن أين تلك اليد؟!.. غير أني ما قصدتُ اليدَ العضباء أو الشلاء، وحينها لن يجد الشباب والشابات للوصول إلى حاجاتهم الغريزية إلا سلوك طريق ملتوية، في نحو ما ذكرت عائشة رضي الله عنها أو يزيد؛ لأن الفساد الخُلُقي سبب في قلة الزواج، وقلةُ الزواج شوكة طلع الفساد الخُلقي.

إن الوقدة من ضرام الشهوة مع حياة العزوبة للرجل والعنوسة للمرأة مشكلة جد خطيرة، فهي إذا استفحلت نغَّصت العيش، ولم ينفع معها ملك ولا مال، وبدت سنونُها كالعلقم، يتجرع العزب مرَّها، ويقاسي ضرَّها، ومن طلب إشباع غَريزته من طرق غير ما أباح الله كان كمن يطلب وسط القبر من العظام والرميم الغادَةَ الحسناء، أو بعبارة أخرى خضراء الدمن.

وقد يكون مثل هذا التفكير في الطلب شبه واقع مشاهد في دنيا الناس، لأن المضطر إلى الرحل لن يدع ركوب الأسنة، ولكن الذي لا ينبغي أن يكون واقعًا مشاهدًا أن يُحس الفتى والفتاة بهذا كله، ثم يضطرهما واقع المجتمع بأسلوبه على مختلف المحاور إلى البقاء على العزوبة، والصرف عن الزواج، والولوغ في حمأ الشهوة، واسترقاق الجسد، من حيث يشعر المجتمع أو لا يشعر، ولن يخرج المجتمع بأي وجه كان عن مغبة ما قيل:

إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وهذه هي المشكلة ومكمن الداء.

ولربما كانت بعض المجتمعات تقول للشاب والشابة، من خلال

ممارساتها الطليقة بلسان مقالها تارة، وبلسان حالها تارات أخرى: اختر إحدى ثلاث، كلها شر، ولكن إياك إياك أن تفكر في رابعها الذي هو وحده الخير، ألا وهو الزواج، وهذه الثلاث ـ يا رعاكم الله ـ:

إما أن ينطوي الشاب والشابة على نفسيهما، وعلى أوهام الشهوة والتفكير فيها وتغذيتها بما يُرى من حبائل الشيطان، حين يُترك الحبل على الغارب، متمثلةً له في غير ما سبيل، فيراها في السوق تارة على لسان حال امرأة متبرجة، قد كشفت عن وجهها، أو عينيها، فأبرزت الحسنَ وسترت القبيح، وبثت مفاتنها لينزلق بها كلُّ متلفت يترقب، فلا يلبث أن ينفجر من شرارة تخرج من عين امرأة تنسف به عقله ودينه.

أو في الأقطار الساحلية تارة أخرى على لسان حال أجساد عارية، قد بدت سؤتها، وكأن البيوت قد عريت عن مياه تُغسل بها الأجساد.

وفي المكتبات ودور النشر الثقافي ـ زعموا ـ، على لسان حال جرائدَ مصورة، ودوريات أسلم ما فيها أنها غيرُ سليمة.

أو في المدرسة والأزقة، على لسان أصحابه الفساق المستهترين، الذين أضحوا فريسة لكل لاقط، وكذا لسان المدرسين والمعلمين الذين سُلبت من نفوسهم أمانة الكلمة، وحملُ التربية والإرشاد، وألسنة الحال كثيرة لا تعد، حتى تودي بهما الحال إلى الانهيار في الخُلق والدين، ولسان حالهم يقول:

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له   إياك إياك أن تبتل بالماء

وإما أن يلجأ الفتى والفتاة إلى طرق سرية خفية، لإبراز غلة الشهوة، وملء الأرجاء بمثيراتها، مما يستفزها لو هدأت، ويجوّعها لو شبعت، والتي حرمها جمهور أهل العلم عملاً بقوله تعالى: ﴿ **فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** ﴾ [المعارج: ٣١].

وإما الاغتراف من حمأة اللذات المحرمة بلا مكيال، والعبُّ من مستنقعها، وسلوك سبلِ الضلال، لتبذل فيها الصحةُ والشباب، في لذة عارضة، ومتعة عابرة، ثم هو لا يرتوي؛ بل كلما واصل واحدة زاده الوصال نَهمًا، كشارِب الماءالمالح، لا يزداد شربًا إلا ازداد عطشًا، وقديمًا قيل في مثل هذا: وداوني بالتي كانت هي الداء.

بمثل هذا وأمثاله - أيها المسلمون - ينهار بناء الأخلاق، وتبور سوق الزواج، ونسلُ الأمة ينقطع في هذا المنعطف الخطير، حتى يكون الرجلُ الواحد قيمًا على أربعين امرأة.

لقد توصل جملةٌ من الباحثين في مشاكل الزواج، إلى أسباب كثيرة هي في الحقيقة سدٌّ منيع في طريق من يريدون الزواج، وهم وإن اختلفوا في عد تلك الأسباب ما بين مقلٍ منها ومكثر، إلا أن أهمّها لا يخرج عن أسباب ثلاثة:

السبب الأول: تلكم العاداتُ الشنيعة، التي تخرب بيوتات البنات والخطاب معًا، وليس فيها نفع لأحد البتة، وإنما هو التفاخر والتكاثر، وفيضانُ كؤوس ممتلئة في التبذير والسرف، أو في الطمع والجشع، حينما لا يزوج الولي مُوليتَه إلا بيعًا، من خلال عضلها إلا بمال وافر، أو بإكراهها على الزواج من غير الكفء، إذا كان مليئًا يفري المال فريًا، مما يسبب تراجع بعض الفتيات، والإحساس بالغمط، وبَطَر الحق من قبل الآباء الجشعين، فتكثر العنوسة، وبالتالي تصبح الفتيات عرضة للفتن، ما ظهر منها وما بطن، فيقعن فيما حذر الله منه بقوله: ﴿**وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ [النور: ٣٣].

جاء في الصحيح: أن جارية قالت لرسول الله ﷺ: «إن أبي زوجني من

ابن أخيه، ليرفع بي خسيسته، وأنا له كارهة، فقال لها: **إن شئت أمضيت أمر أبيك**، و**إن شئت فسختيه**، فقالت: أمضي أمر أبي، ولكن فعلتُ ذلك ليعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء»، تعني ليس لهم إكراه بناتهم في التزويج ممن يكرهن.

إنه عندما يصل المجتمع المسلم إلى درجة الرَشَد السوي، فإنه لا يستطيع أن ينظر بعين الرضى، إلى ممارسات في التنافس غَير البريء، في غلاء المهور، وعشق الأثاث، ومن أبى إلاَّ ركوب رأسه فلا جرم أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «**على كم تزوجتها؟**»، فقال: على أربع أواق - يعني مائة وستين درهمًا - فقال النبي ﷺ: **على أربع أواق؟!**، كأنما تنحتون الفضة من عُرض هذا الجبل ما عندنا ما **نعطيك**» الحديث رواه مسلم في صحيحه.

سبب ثان من أسباب تلك الظاهرة يتمثل في قلة الدين، وتغيب العفاف، وانتشار أسباب الفساد بين أروقة الشباب والشَابات، من خلال التوسع في الأقمار المرئية المشينة، والتي تبث كل قبيح من القول، أو رديء من الفعل، ولا يعدم مروجوها من أن يجدوا رجع صداها، في المريدين والمريدات، والمراهقين والمراهقات، غيرَ مصدقين ما يرونه من فوضى وإباحية، لا سيما وقد اعتادوا في بلادهم جو المحاصرة وقطعَ الشهوات إلى حد ما، فيرون من خلالها إقرار الاختلاط بين الجنسين، والرضا بالخدين والخدينة، وبثَّ المشاهد الدالة على كيفية فكاك الخائنة من زوجها بالتضليل عليه، وبإشاعة طرق الإجهاض، والتخلصَ من الثيوبة، حتى تُكشف سوءة من سوءات الكَفر، وعورة من عورات الضمائر الكامنة، يحرص

العقلاء من بني آدم عادةً على سترها كما يسترون عورات البدن، ثم لا تسألوا بعد ذلك عن قيام النفوس الضعيفة في المشاهدين والمشاهدات بالدعوة إلى الإفساد، وفصل النفوس عن القيم والأخلاق بزعم الحرية، التي تهدف إلى إعلاء الشهوة، وعبادة الجسد، وفتح الطريق للمرء ليكشف عن كل نزواته وأهوائه، وليكون تحرره كاملاً من كل ما يتصل بالمبادئ والمثل والقيم، التي قررها الإسلام، ليعيش الفتيان والفتيات لصوصًا على أعراض الناس، يختلسون النظرة، ويستجدون اللحظة، ويستمرئون التسول الغريزي، والسطوَ المتقن على الأخلاق والدين.

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩].

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الداعي إلى رضوانه، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه وإخوانه.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، ثم اعلموا أن ثمة سببًا ثالثًا من أسباب تلك الظاهرة، وهو ما يردده بعض أرباب الأفكار اللقيطة، من الذين ينفثون سمومهم عند زوايا متعددة، يقررون من خلالها أن التبكير في الزواج عمل غير صالح، وضرب من ضروب التغرير بالمراهقين، وأنه لا ينبغي أن يغامر شاب ما بعملية الزواج قبل التزود الكافي من التجارب.

وفي ذلك يقول قائلهم: لا قبل لي بهذا المعنى الذي يسمونه الزواج، فما هو إلا بيت ثقله على شيئين على الأرض وعلى نفسي، وأطفال يلزمونني عمل الأيدي الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنين، وأتحمل منهم رهقًا شديداً، ومن ثم سيصبحون عالة على المجتمع، ومن ذا الذي تعرض عليه الحياة سلامها وأشواقها في مثل رسالة غرام، ثم يدع ذلك كله ويتزوجها، فكأنه بذلك يسألها غضبها وخصامها في نحو قضية من قضايا المحاكم كل ورقة فيها تلك ورقة.

ولا غرو - أيها المسلمون - أن يكون لمثل هذا الخطاب الصدي آذان مصغية من فتيان وفتيات يكونون من خلالها قناعات واهية كبيت العنكبوت أو هي

أوهى حتى يصل بهم الأمر إلى أن يكون الواحد منهم خوارًا جبانًا، لا يستطيع أن يحمل أثقالاً مع أثقاله، ويستوطن العجز والخمول، فلا يكون إلا قاعد الهمة، رخو العزيمة.

وكل شاب أو شابة يردد مثل هذه الترهات فهو حادثة ترتدف الحوادث وتستلزمها، ولا يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه، فيشهد العزاب والعوانس على نفوسهم أنهم مبلوون بالعافية، مستعبدون بالحرية، مجانين بالعقل المزعوم، مغلوبون بالقوة، أشقياء بسعادتهم الموهومة.

وما علم هؤلاء وأمثالهم أنه بالنكاح يلتئم الشمل، ويلم الشعث، وتسكن النفس، وتتم به نعمة الله على البيوت، ويحصل الولد، ومن رغب عن النكاح من دون ما سبب فقد ترهب، وعنده ينقطع نسل من بني آدم، يقول الله جل وعلا: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢].

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم به من الغنى.

اللهم صل على محمد..

* * *

«أمانة القلم»

الخطبة الأولى

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، وليِّ الصالحين، ومجيب دعوة المضطرين، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، إليه يصعد الكلمُ الطيبُ والعملُ الصالحُ يرفعه، له الحكم كله، وإليه يُرجع الأمر كله، وبيده الخيرُ كله، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه تُرجعون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خيرُ مرسول، وأشرف متبوع، بالحق قضى، وللحق دعا، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغرِّ الميامين، وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن سعادة المؤمن ورفعَتَه تبدو مجلاةً في تقواهُ لربه، إذ بالتقوى يُذكر، وفي التقوى يُنصر، يطيع فيُشكر، ويعصي فيُغفر، فليتق الله امرؤ حيثما

كان، وليتبعِ السيئة الحسنة تمحها، وليخالق الناسَ بُخُلق حسن، ذلك ذكرى للذاكرين، والعاقبة للتقوى.

أيها الناس:

قاعدة من قواعد التفسير مقررة، كشف معناها علماءالتأويل وأئمتُه، وعدوها معنى من معاني التشريف والتكريم، ما جاءت أفرادها في القرآن إلا وفُهِم منها علو المكانة، ورفعةُ المنة بها، ونعمةُ الإيجاد التي يمن الله بها على عباده، من مخلوقاته في الأرض وفي السماء.

تلكم القاعدة عباد الله، هي أن لله جل وعلا أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته في سمائه وأرضه؛ كالليل والقمر، والشمس والنجم والطارق والفجر والعصر، وغيرها من المخلوقات، وهذا القسم من الله أمارة على المكانة والاختصاص من بين سائر المخلوقات.

وإذا ما أرسلنا الطرف رامقًا بين دفتي كتاب الله جل وعلا فإننا - ولا جرم - سنجد أن هناك قسمًا من بين تلك الأقسام الجليلة؛ قسمًا أنزل على محمد ﷺ، نزل به الروح الأمين، قسمًا أنزله الله تسلية وتثبيتًا لخاتم الرسالات والمرسلين، قسمًا من الباري جل شأنه في مقابل تكذيب وعناد يصرخ به كفار قريش وصناديدُهم، إنه قول الباري جل وعلا: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ**﴾ [القلم: ١، ٢].

الإقسام من الله لا يُتبع إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما صنع، لقد أقسم الله بالكتاب وآلته وهو القلم، الذي هو: إحدى آياته.. وأول مخلوقاته.

والقلم - عباد الله اسم جنس لكل ما يُكتب به.. وهو أول مخلوقات الله تعالى، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والترمذي وغيرهما: أن

النبي ﷺ قال: «**إن أول ما خلق الله القلم**..» الحديث.

القلم - أيها المسلمون - .. هو خطيب الناس وفصيحهم، وواعظهم وطبيبهم، بالأقلام تُدبر الأقاليم، وتُساس الممالك.. القلم نظام الأفهام، يخطها خطًا فتعود أنظرَ من الوشي المرقوم، وكما أن اللسان بريدُ القلب، فإن القلم بريدُ اللسان الصامت، وإذا كان الأمر كذلك فقلمك يا أخي لا تذكر به عورة امرئ، إذ كلك عورات وللناس أقلام.

الكتابة بالقلم للمرء شرف ورفعة، وبضاعة رابحة، وآثر غال ومآثر عُلا، هي للمتعلم بمنزلة السلطان، وإنسان عينه، بل عين إنسانه.. كيف لا؟، وأعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها: أن الله سبحانه نسب تعليمها إلى نفسه، واعتدها من وافر كرمه، وجزيل إفضاله، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ : ٥].

بالإضافة إلى ما يؤكد أن هذه الآية مفتتحُ الوحي، وأولُ التنزيل على أشرف نبي وأكرم مرسل، وفي ذلك من الاهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا خفاء فيه؛ بله ما وصف الله به حفظته بقوله: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ** ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

يقول ابن القيم رحمه الله: التعليم بالقلم من أعظم نعم الله على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، واندرست السنن، وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلفُ مذهبَ السلف، وكان يعظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم، لما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صورَ العلم من قلوبهم.. إلى أن قال رحمه الله: فمن ذا الذي أنطق لسانك، وحرَّك بنانَك، ومن الذي دعم البنانَ بالكف، ودعم

الكفَّ بالساعد، فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم.

أيها الناس:

دعا إلى القلم والخط به نبيٌّ أمي، لم تكن أميته يومًا ما قدحًا في رسالته، أو مثلبًا في نبوته.. كلا، بل هي مدح ومنقبة؛ لأن من ورائها حكمةً بالغة هي ردٌّ وحُجةٌ على الملحدين المعاندين، حيث نسبوه إلى الاقتباس من كتب المتقدمين كما أخبر الله بقوله: ﴿**وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الفرقان: ٥]، وأكد ذلك بقوله: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فكان ذلك من أقوى الحُجج على تكذيبهم، وحسم أسباب الشك في نبوته.

لقد كان الخط في مبدأ ظهور الإسلام هو الخطَ الأنباري، كان يَكتُبُ به النزر اليسير من العرب عامة، وبضعةَ عشر من قريش خاصة، وبعد انتصار النبي ﷺ في بدر أسر جماعةً من المشركين، كان من بينهم بعض الكُتَّاب، فقُبل الفداء من أمييهم، وفادى الكاتب فيهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة، فانتشرت الكتابة بين المسلمين، وحضوا على تعلمها، واشتهر كُتَّاب الصحابة كزيد بن ثابت، ومعاوية، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص رضي الله عنهم، ثم ازدادت انتشاراً في عصر التابعين على قلة الإمكانات وعسر الحال.

يقول سعيد بن جبير رحمه الله: كنت أجلس إلى ابن عباس فأكتب في الصحيفة حتى تمتلئ، ثم أقلب نعلي فأكتب في ظهورها.

وقال عبد الله بن حنش: رأيتهم عند البراء يكتبون بأطراف القصب على أكفهم.

وذكر الإمام الدارمي رحمه الله: أن أبان رحمه الله يكتب عند أنس في سبورة.

قال سعيد بن العاص رضي الله عنه: «من لم يكتب فيمينه يسرى».

وقال معن بنُ زائدة: «إذا لم تكتب اليد فهي رجْل».

هذه النصوص وأمثالها لا أبعاد لها إلا التحضيضُ والترغيبُ في الكتابة وتعلمها ليس إلا.

أيها المسلمون..

لقد فاخر كثير من البلاغيين بالقلم حتى جارَوْا به السيف، وأزيد من ذلك بضروب من وجوه الترجيح، كيف لا وقد أقسم الله به، إضافة إلى أن القلم يؤثر في إرهاب العدو على بعد، بخلاف السيف، فإنه لا يؤثر فيه إلا عن قرب، إذ إن القلم البرَّ الجاد يرقمُ صحائف الأبرار لتحطيم صحائف الأشرار، لا يصرفه عن ذلك ما يلاقيه في عوالم شتى من قبل ذوي الترف من أهل البدع والإلحاد في الدين، أو من ذوي الأقلام المأجورة ممن همهم الإحبار، أمام الدرهم والدينار، فضلاً عما يصاحب ذلك من تعسف وإرهاق، باسترقاق الأقلام أو تجفيف المحابر، إنه في الحقيقة لا يزيد أهل العلم إلا بيانًا وتبيانًا، وعزمًا على قول الحق، وتبيين الدين للخلق، والتحذير مما يغضب الله ورسوله، مع سكينة وأريحية، حاديهم في ذلك قوله جل وعلا: ﴿**أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ**﴾ [الزخرف: ٥].

عباد الله..

صدق القلم وفصاحته من أحسن ما يتلبس به الكاتب، ويتزر به العاقل، والاعتناء بأدب القلم في المعنى هو ضرورة كما الأمر في المبنى، وهو بذلك صاحب في الغربة، ومؤنس في القلة، وزين في المحافل وأشياع الناس، ناهيكم بعد ذلك عن دلالته عن العقل والمروءة ورباطة الجأش، والتبري من ضيق العطن، وعشق رأي الذات ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ**﴾ [الرعد: ١٧]، ثُمةَ ولا شك أن

منْ غرسَ فسيلاً يوشك أن يأكل رُطبَهَا ، وما يستوي عند أولي النهى ، وذوي الحجى ، قلمان : أحدهما ثرثار متفيهق ، يطب زكامًا فيحدث جذامًا ، والآخر يكتبِ على استحياء محمود ، وغيرة نابتة من حب الله ورسوله ، وإذا تعارض القلمان فإن الخرس خير من البيان بالكَذبً ، كما أن الحصور خير من العاهر .

من عزم الكتابة - عباد الله - : فلا يتخذها للمماراة عُدَةً ، ولا للمجاراة ملجئًا ، ولا يأمن الزلة والعُرضة للخطأ ، وكما قيل : منْ ألَّف فقد استُهدف . وفي القديم : مَنْ كتبَ فكأنما قدمَ للناس عقلَه في طبق .

وإن تعجبوا - عباد الله - فعجب ما يقول المُزَني رحمه الله عن شيخه الإمام الشافعي الفقيه النحوي المحدث : قرأتُ كتاب الرسالة للشافعي عليه ثمانين مرة ، نجد في كل مرة ما لا نجده من قبل . يعني بذلك مما يستوجب إعادة النظر .

ألا وإن أبلغ الأقلام في الوصول إلى القلب ما لم يكن بالقروي المجدع ، ولا البدوي المعرَّب ، مع ما يتحلى به صاحبه من صدق في الحال ، ونية في الإصلاح ، وإلا ماذا يغني الضبط بالقلم ، إذا لم يشف من ألم .

وحاصل ذلك أنه ما رؤي كمثل القلم في حمل المتناقضات ، فهو عند اللبيب المهتدي آلة من آلات الخير والبر ، ومركب من مراكب البلوغ والنجاح ، ورأبِ صدع الفلك الماخر .

وهو عند الوقح السفيه ، عقرب خبيثة ، ودود علقٍ ، يلاصق لحم من ينال .

وبينهما ثالث برزخ يقول فيه بعض أهل العلم : العرب تضرب المثل بالمحتطب بالليل ، الذي يكتب كل ما يسمع من غث وسمين ، وصحيح وسقيم ؛ لأن المحتطب بالليل ربما ضم إليه أفعى تنينًا ، فتنهشه وهو يحسبها من الحطب ، وأهل هذا الصنف سواد في الناس ، غير خاف لرامقٍ ببصر .

قد يوفق الكاتب في كتابته ، فيكون لها شأن يظهر عليها منه الجدة

وإجادة المطلع وحسن المقطع، مدعمة بالنصوص الشرعية، والأقوال المرعية، فتبهر القلوب، وتأخذ بالألباب، حتى يظن القارئ أو السامع أنها غير ما في أيدي الناس، وهي مما في أيدي الناس، حيث ترى براعة القلم وشجاعته، ولطف ذوقه، وشهامة خاطره وليس كل خاطر براقًا، وفي الحديث: «**إن من عباد الله من إذا قرأ القرآن رأيت أنه يخاف الله**»، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

لقد بُهرت الأمة بكتّاب مسلمين في كافة الميادين، شعراءَ ملهمين من شعراء الزهد والحكمة كأبي العتاهية، وأئمة مهديين أشاعوا العلم ونصروه، ونصروا السنة بأقلامهم؛ كالأئمة الأربعة، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، ومحمد بن عبد الوهاب، وغيرهم كثير وكثير من مجددي ما اندرس من معالم الإسلام.

بيد أن القلم في هذا الزمان قد فشا فشواً كبيراً، واتسع نطاقه حتى بلغ القاصي والداني، في صورة هي في الحقيقة مصداق لقوله ﷺ: «**إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة، وفشو التجارة، حتى تعين المرأةُ زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم**» رواه أحمد.

ومما لا شك فيه أن الشيء إذا فشا وذاع ذيوعًا واسعًا، كثر مُدَّعوه، وقلَّ آخذوه بحقه، فكثر الخطأ، وعمّ الزلل، وإن من ذلك عريَ بعض الأقلام عن الأدب، فلم ترع حرمة، ولم تحسن رقمًا، ولم تزن عاطفةً في نقاش، فثارت حفائظ، وبُعثت أضغان، وكُشفت أستار، واشتد لغط، رقمًا بقلم في قرطاس ملموس بالأيدي، ناهيكم عن الكذب والافتراء، والتصريح بالعورات والمنكرات، والجرأة على الله ورسوله، مع ما يصاحب ذلك من قلم متعثر، ومقالات إلى أسباب تلك العثرات، حتى يزداد خطرها،

ويستفحلَ شرُّهَا، ومن ثم ينوء أصحابُها بأحمال ندم لا يقلها ظهر، وتنكيس رؤوس يحسون بها بعيدي الرفع، ودموع حزن على قبح تسطير ما لمددها انقطاع، وأقسى الكل أن سيقال لمثل أولئك: بماذا؟.. ومن أجل ماذا؟.. ولأي شيء؟..

يا من خططت ببنانك ما يوبق انتماءك للحق، وصرفَ جنانك، ثم توزن بالعدل والميزان غالب.

فيالله العجب.. كيف وهبت لهؤلاء عقول، وأسيلت أقلام فما قدروا الله حق قدره بها؟!.. ولم يستحضروا ثمرة العقل الموهوب، والرقم المكتوب، الذي باينوا به البهائم حتى بفعلهم، وغفلوا عمن وهب، وهو الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

ولعمر الله أي شيء لهم في الجد، والقلم ليس ملكًا لهم، ويالله كيف لا توجه الموضوعية في الطرح على شرعة ومنهاج من بعث لصاحب القلم السيال في ظلام طبعه نورَ القبس ﴿ **ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ** ﴾ [النور: ٤٠].

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وإخوانه.

أما بعد:

فإن المسلمين بعامة في حاجة ماسة إلى القلم الصادق.. إلى القلم الأمين.. إلى القلم الملهم الذي ينشر الحق، ويحيي السنة، ويدل الناس إلى ما فيه خير دينهم ودنياهم ﴿**وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إن القلم أمانة، وحملته كثر من بني الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً، وما كل من حمل الأمانة عرف قدرها، ولأجل ذا لفت علماء الإسلام الانتباه إلى صفات وضوابط لا يسع الأمة إهمالها، ولا ينبغي أن يقصر فيها كاتب أو ذو قلم، أو من جهة أخرى تلفت الفطن، من قبل القراء وأمثالهم إلى عمن يتلقون ما ينفع؟.. ولمن يقرأون ما يفيد؟.. وممن يأخذون؟.. ولمن يذرون؟.. فتكلموا عن كون صاحب القلم مكلفًا بليغًا، قوي العزم، كفوًا، عالي الهمة ونحو ذلك، إلا أن أجل التأكيد منصب في كثير من كلام أهل العلم على أمور ثلاثة، هي من الأهمية بمكان:

أولها: أن يكون الكاتب مسلمًا؛ ليؤمن فيما يكتبه ويسطره، ويوثق به فيما يذره ويأتيه، إذ هو لسان المجتمعات الجاذب للقلوب، ولأجل ذا لما قدم

أبو موسى الأشعري على الفاروق ومعه كاتب نصراني، فأعجب الفاروق بحسن خطه، فقال: أحضر كاتبك ليقرأ، فقال أبو موسى: إنه نصراني، لا يدخل المسجد، فزجره عمر وقال: «لا تؤمنوهم وقد خونهم الله، ولا تدنوهم وقد أبعدهم الله، ولا تعزوهم وقد أذلهم الله».

وقد قال الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم»: ما ينبغي لقاضٍ ولا والٍ أن يتخذ كاتبًا ذميًا، ولا يضع الذمي موضعًا يفضل به مسلمًا.

فإذا كان هذا - أيها المسلمون - فإنه يعز علينا جميعًا أن يكون لنا حاجة إلى غير مسلم، وإذا كان هذا في حق كاتب القاضي أو الوالي، ففي كتاب المسلمين وصحافتهم من باب أولى؛ لعموم النفع أو الضر به، فليت شعري هل يعي ذلك ممتهنو الصحافة قراءة وكتابة، وهل سيظلون في دائرة التلقي ممن في صدق انتمائهم للدين شك، أم أننا سنظل أبدًا نتذوق مرارات نتجرعها ولا نسيغها غير مرة.

أما ثاني الأمور - يا رعاكم الله -: أن يكون صاحب القلم عالمًا بما يكتب على وفق ما أراد الله ورسوله ﷺ، في أي جانب من جوانب الأقلام: سياسة، أو اقتصادًا، أو اجتماعًا، أو حضارةً، أو غير ذلك، فالشريعة تسع الجميع، وهي الرسالة العظمى، والجميع مفتقر إليها، ومن ظن أنه يسعه الخروج عنها ولو بشبر -، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى - عليه السلام -، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

بعث رسول الله ﷺ معاذًا إلى أهل اليمن بكتاب قال فيه: «**إني بعثت إليكم كاتبًا**»، قال ابن الأثير في غريب الحديث: أراد عالمًا، سمي بذلك لأن الغالب على من كان يعلم الكتابة أن عنده علمًا ومعرفة.

وثالث الأمور - عباد الله -: هي العدالة وما أدراكم ما العدالة؟.. لأن

صاحب القلم إذا كان فاسقًا غير مستقيم المروءة يكبر ضرره، ويشتد خطره، وربما قادته أهواؤه ومآربه إلى استمالة قلوب الرعاع؛ لأنه لو زاد أو حذف، أو كتم شيئًا علمه، أو تأول، أو حرف، أو لبس ودلس، أو كان كمن وصفهم الله بقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ [الأنعام: ٩١]، ليقضوا لباناتهم من جراء هذا التلاعب، فيؤدي ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الإضرار، ونفع من يجب أن لا يُرفع عنه الضرر.

وربما موه وغش حتى مدح المذموم، وذم الممدوح، فيؤثر فعله من الإضرار ما لم تؤثره السيوف؛ لأن مثل هذا إذا عزم عداوة سفك الدم بسنة قلمه.

والمقرر المشاهد أن الكلام ينسى، والهم يغفر، والمكتوب موثق باق، ورسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عفى لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به**».

فكيف ـ يا رعاكم الله ـ إذا كتبه ونشره؟!، ألا إن الأمر أشد، والعلة أدهى وأمر، ولا يضر المخطئ إلا نفسه، والمكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣].

اللهم صل على محمد..

* * *

«اللباس بين الستر والتعري»

الخطبة الأولى

الحمد لله الواصل الحمدَ بالنعم، والنعمَ بالشكر، نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه، ونستعينه على نفوسنا البطاء عما أمرت به، السراع إلى ما نهيت عنه، ونستغفره مما أحاط به علمه، وأحصاه كتابه، علم غير قاصر، وكتاب غير مغادر. خلق الإنسان وبصره بما في الحياة من خير أو شر ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٧٦].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ﷺ، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه، فإنها دار حصن عزيز، تمنع أهلها، وتُحرز من لجأ إليها، وبها تُقطع حمة الخطايا، فهي النجاة غدًا، والمنجاة أبدًا بفضل الله.

أيها الناس:

البشر بعامة محكومون بحدود وأعلام، يتقاسمها في الأساس: فطرة الله التي فطر الناس عليها، وشريعة من الأمر، أمر الناس باتباعها على هدى وبصيرة، وهم إبان ذلك قد يضعفون أمام تلك الحدود والمعالم، إلى درجة الخذلان المنبثق من التهاون واللامبالاة، أو قد يشتدون مع منافع زهرة الحياة الدنيا إلى حد الطغيان ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

والمؤمن الكيس مطلوب منه التماسك والرباطة على حاليه كلتيهما، إذ إن تراخي الغرائز يمنة ويسرة يتقاذفها ريح الهوى في كل اتجاه، دونما تخضع مذعنة لحدود الفطرة، والشرع، هي لابد منتهية بأصحابها إلى بلاء عريض، فإن الباري جل وعلا لم يخلق الغرائز لبني آدم لتكون محلاً للسطو أو الاختلاس، أو التلصص بأعراض الآخرين، ولا خلقها ليتعبد بعض الناس بقتلها والعب منها دونما سياج وحماية يحكمان محالها.

المرء الإنسي في هذه الحياة تبتدئ له عورتنا اثنتان، يتجاذب الاهتمام بسترهما، والحرص على موارتهما، فطرة الله التي فطر الناس عليها، والتي يتم تنشيطها والإحساس بتمامها نداءات حية من شريعتنا الغراء.

ومن هذا المنطلق حرص الإنسان السوي على أن يواري عورتيه وسوأتيه أشد المواراة، عورته الجسدية، وعورته النفسية أو المعنوية، وأصل البشرية أبوان كريمان، ابتدأ الامتحان بالعورات بهما، وأين هذا الامتحان؟، إنه في جنة الخلد وملك لا يبلى ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠].

لقد حرص الشيطان على أن يقضي ابتداءً على عنق الزجاجة ومكمن الحياء، وهو الستر ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن

وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]، يخصفان عليها خجلاً من تعريهما، إذ لا يتعرى وينكشف إلا من فسدت فطرته، ويالله لقد نسي آدم فنسيت ذريته.

أيها المسلمون:

إن الستر فطرة تجعل المجبول عليها لا يأذن للعوادي أن تكشفه، كائنة ما كانت، ولو اضطر يومًا ما على أن يبدي سوءته الجسدية، لضير ألَّم به، فسيكون ذلك على استحياء وخجل شديدين، أمام طبيب ونحوه، الضرورة كامنة وراء استسلامه.

وقولوا مثل ذلك في العورة القلبية، وما يكون من أحوال مشينة، تصدر من نفس المرء يخشى أن يطلع عليها غيره، على حد قول النبي ﷺ: «**الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**»، وجماع الأمر في العورتين ـ عباد الله ـ هو قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٦].

لقد امتن الله جل وعلا على عباده، بما جعل لهم من اللباس والريش الذي يوارون به سوءاتهم، فباللباس تستر العورات عن أعين بني آدم، باللباس يكبح جماح الشهوة الطاغي، ويكفكف اللحظ وتماداة البصر، عن أن ينطلق إلى ما لا يرضي الله.

باللباس ـ أيها الناس ـ تستر المرأة أنوثتها، وتحفظ كيانها عن أن تكون علكًا ملتصقًا بأحذية لصوص المرأة وأيدي العابثين، حتى تصبح جوهرة في صدفة، لا ينظر إليها إلا الخواص وهم الأزواج.

باللباس والستر يقدم المرء رجلاً أو يؤخرها، إذا ما امتدت نفسه إلى خطبة امرأة بالحلال.

باللباس ـ أيها المسلمون ـ يُعرف الذكور والإناث عن مدى احتشامهم

واستقامتهم، وحبهم للستر مظهراً ومخبراً، وبه تعرف الأسر المصونة من غيرها.

باللباس والستر قد يُحمى ركن أساس مما أجمع عليه الأنبياء والرسل قاطبة، وهو حماية العرض والنسب من نواهبهما.

ثم إنه بالرياش يتجمل الإنسان ظاهراً، إذ لباسه من الضروريات لجسده، والريش والرياش من التحسينيات والزيادات التي يتمتع بها المرء وفق ما شرعه الله له دونما إسراف، على حد قوله ﷺ: «**كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده**»، رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

وذكر البخاري رحمه الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة**».

ولا غرو - أيها المسلمون - في مقابل نعمة اللباس والامتنان بها، أن يشرع الحمد من قبل المرء على ما يكسو به معيبه ويواري سوءته، فلقد صح عن أحمد وغيره أن النبي ﷺ يقول عند الكسوة: «**الحمد لله الذي رزقني من الرياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتي**».

والأمر - عباد الله - ليس حكراً على ستر العورة الحسية الجسدية فحسب، بل إن لباس التقوى، وستر التقوى خير ما يتجمل به المرء، إذ ما عسى ستر البدن أن ينفع إذا كان القلب عارياً، استيقظ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «**الله أكبر، ما فتح من الخزائن اليوم، أيقظوا صويحبات الحجر، فرب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة**» رواه البخاري.

أيها المسلمون:

الفطر السليمة، والأنفس السوية، تجفُل بطبعها من ظهور السوأتين، وتحرص أشد الحرص على مواراتهما، والذين يحاولون في تبعياتهم

النكوص عن هذه الحقيقة على علم أو جهل، بما يطلقون من دعوات هنا وهناك، عبر ألسنتهم وأقلامهم ومقرراتهم، لتأصيل هذه المعرة، هم الذين يريدون سلب خصائص فطرة الإنسان، وهم الذين ينفذون بالحرف الواحد المآرب الصهيونية الرهيبة، عبر مقرراتهم المرقومة، لإشاعة الانحلال بين بني الإسلام.

وإن تعجبوا - عباد الله - فعجب أن اليهود هم أول من شن الحرب على نزع الستر وإظهار السوأة، منذ تآمر رجلان منهم في سوق بني قينقاع على نزع حجاب امرأة، وكشف سوءتها حينما كانت جالسة في السوق، فربطوا خمارها بطرف ثوبها، فلما قامت واقفة بدت سوءتها للناس، فاستغاثت بمن حولها، ثم توالت بعد ذلك أحداث شبيهة.

كما ذكر ذلك ابن الأثير في كامله، عن شابين من قريش رأوا امرأة جميلة من بني عامر في سوق عكاظ، فسألوها أن تسفر عن وجهها فأبت، فامتهنها أحدهم، فاستغاثت بقومها حتى كان ذلك سببًا في اليوم الثاني من أيام حروب الفجار المشهورة.

العري - أيها المسلمون - سمة حيوانية بهيمية، ولا يميل إليه إلا من هو أدنى من الإنسان، ومتى رؤي العري والتعري جمالاً وذوقًا وتقدمًا ومسايرة لركب الغافلين، فقولوا على الفطرة السلام، ولتبدأ الآذان مصغية في سماع ما يبكي ويحزن من مآسي التفنن والتنويع في الانسلاخ والتجرد عن قيم الإسلام، ناهيكم عن سوء العواقب الموخزة، وحينئذ واقعون لا محالة فيما حذرنا منه الباري بقوله: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾ [الأعراف: ٢٧].

عباد الله: إن لنا في كل يوم أجناسًا من الذكور والإناث، تنموا غضة

رقيقة، لا يتعهدها أحد بسقي ولا رعاية، حتى تصيبها الجائحة فتجف وتذبل، كما أن عواصف التغريب والاستسلاخ والاستنساخ وأزراءها تحطم أعراقًا متينة من الستر والحشمة، طالما أظلت وسقت حتى اجتثت فلا بواكي لها، وفي الوقت نفسه تزهر أفئدة من بني الجنسين، ثم تؤتي أكلها ثمرًا ناضجًا حلوًا، فلا يوجد في بعض الجمهور مستبشر بها غير سالم من وكزات دعاوى التخلف ومعرة ما يسمى: «مشي الرجوع» على حد زعمهم.

لقد صعدت أجيال تنكرت لماضيها وأعراقها، التي أصلتها وحكمتها شريعة الإسلام، أقحم الناس أنفسهم في الميدان، وجعلوا التحسين والتقبيح خاضعًا لممارسات الحضارة الغربية وطيشها، تبدل الوزّان وبقي الميزان مختلاً، وقبُّه مائلاً، وصناجه ضائعة، حتى إن أحدنا ليجد بين الأم وبنيها، أو بين الأب وابنه في صورة اللباس وما يشاكله من البون الشاسع، ما يعادل قرنًا كاملاً، ألا ما أكثر الأحياء فينا وهم قتلى، ذكور وإناث يلبسون لباسًا لم يفصل لهم، ولم يُقس عليهم، وإنما خيط لغيرهم فأخذوه هم بلا إصلاح، ومشوا به فرحين كما يمشي الطفل بحلة أبيه يتعثر بها فيسقط سقطات يكون بها محلاً للضحك والتندر.

إن الخلل الذي تعيشه جملة من الشعوب الإسلامية في قضية اللباس والستر، إنما كان منشؤه من ممارسات خاطئة في كيفية التعامل مع الحضارة المدنية في كافة شئونها الحياتية، وفي المفاهيم المغلوطة لمعاني التقدم الحية، مما علّق مواهبهم، وقدراتهم عن تسخيرها باقتدار وإجادة، حتى التحقوا بالركب المتقدم، عن طريق التشبه به والاقتباس منه، وعذرهم في ذلك أنهم يريدون النهوض بأنفسهم وأمتهم من وهدة النمو إلى مصاف الأمم المتحضرة، ولم يعد

للشرع ولا للفطرة في بعض الأفئدة إلا النسبة الأساس، وإذا رأيت ثوب المفتون بهم يستر بعض العورة، فاعلم أنه صورة لما عندهم من الأنموذج الجديد.

إن الإصابة بحمى اللباس ليست على درجة واحدة بين المسلمين، إذ منهم من شمل السفور والحسور والتشبه نساءه ورجاله أو الكثرة منهم، ومنهم من ظهر فيهم واستعلن، وإن لم يعم ويشمل، ومنهم من بدأ يقرع أبوابهم، ويضع إحدى قدميه إن لم تكن وضعتا كلتاهما.

حدثوا ـ أيها المسلمون ـ ولا حرج، عن انهماك المجموع، بما سمي على لغة العصر «الموضة» حيث يتلاعب مصممو اللباس بنفسيات الجنسين، في جذب أنظارهم تجاه كل لباس مستحدث مهما كان انسلاخه من معاني الرجولة، أو سمات الأنوثة العفيفة المصونة، استنزاف للأموال، واستخفاف بالرعاع، ونشر للفاحشة كيفما نشر، بعرض المفاتن وسبل الإغراء، حتى أصبحت الموضة تكأةً للإثراء، ووأدًا للعفاف لدى كثير من الشعوب، والزمن كفيل في أن يقنعوا جمهور اللاهثين في قبول الإحداث المتجدد، المتراوح بين انتشار ما يلبس دون الركبة أو فوقها، أوما يُفتح من الجانبين، ليبدو ما يتمنى المرء المسلم معه الموت، ولا أن يرى يومًا ما شيئًا من ذلك في محارمه، ولا أن يكون ضحية المشاهدة لما يستفز العيون من محاجرها مشرئبة لتتقد كوامن الشهوة كالنار المتأججة في الصدر، والتي يترجم أوارها عبر جوارح المغفلين.

إنه التفنن في إذابة الأعراض، وإغراء الشعوب بما يبعدهم عن ربهم وخالقهم..

التفنن في تعويد المرأة أن تبدو سافرة، وعلى أن تقنع نفسها بأن حياتها ومستقبلها مرتهن بما تبديه من إغراء وتفنن في عرض التقاسيم البدنية عبر مدارك الأزياء المتجددة التي ربما كان المشي بها أصعب من مشي على حبل مما بها من ضيق، أو كمشي المجندل بالحديد، ولن تستطيع صعود درجة إلا بكشف ساقيها، والمتحجبة منهن ربما تفننت في تقشيب الحجاب، وإحالته إلى وضع

أشد فتنة من ثوبها وصورة وجهها، ولطالما فتنت بعض العباءات السود ألباب الرجال، فكم من عباءة هي في الحقيقة أشد ما تكون إلى عباءة أخرى تسترها.

وأما الشباب فحدثوا ولا حرج عن تململهم بلباسهم الرجولي، وغدو في إشفاق مشين بلباس أهل الفن والمجون، حتى لقد أصبح المرء الغيور يرى من أحوالهم ما يحترق به بصره مرة تلو الأخرى، أهكذا نرى شباب المسلمين، إن أحدنا ليضع كفه على ذقنه، ويقرع سنه حيرة، يسائل نفسه: لم؟، وبم؟، ولأي شيء يستنكف الناس لنداءات الفطرة، وحدود شرعة الله ومنهاجه؟.

إن مرد ذلك كله إلى إفساد البنت والشاب، إذ معظم ممتهني دور التصاميم والأزياء هم من اليهود في عواصم الغرب، فهم بيوت الألبسة ومصمموها، وهم أساتذة التجميل ودكاكينه.

بل لم يكتف أولئك بعقلاء الجنسين، حتى امتدت مآربهم إلى من هم قبل سن التكليف، من صبيان وبنات، فأشربوا من خلال ملابس الأطفال المنتشرة في المعمورة، والتي لا تمت للحشمة بصلة، أشكالاً وألوانًا، من الضيِّق تارة، ومن العاري أخرى، ومن القصير الفاضح كرات وتارات، هي ملأى بالصور، أو بالعبارات الرقيعة، قد لا يفهم جل اللابسين المراد بها، ولا تسألوا بعد ذلك عن حال الطفل والطفلة بعد الكبر، إن كلاً منهما لم يعوَّد يومًا ما على الستر الشرعي.

إن الأب والأم إن كتب لهما الوعي، والحرص بعد ذلك على سترهما ليجدان المرارة واللأي في الإقناع به، وللأبوين نقول: اليد أوكت والفم نفخ، وعند سؤال المكابرين منهم: يقولون: ماذا نفعل، هكذا يلبس الناس، وهكذا يريد الناس.

ولعمر الله - أيها المسلمون - كم يجلس الغيور الصادق يبحث جاهداً لأطفاله، متسوقًا في كل مجمع، يعزّ عليه أن يجد المكسي من الثياب،

ويعيه طلابه، فالله المستعان.

إن هذه المفاهيم والأخطار المدلهمة، ينبغي ألا يفهم إنكار المصلحين لها على أنهم يريدون بها التحجير، أو الإبقاء على القديم من كل، بحيث يظن البعض أن المراد هو الإلزام بكل ما كانت تلبسه أمهاتنا ومن ولدنّهن، أو آباؤنا ومن ولدوهم، كلا، إن الشرع لم يلزم بذلك، وإنما منع من كشف العورات، ومن لُبْس ما يخدش الحياء، أو يُبرز المفاتن، وترك لنا في الجملة اختيار الزي الذي يلائمنا ويسترنا مهما تجددت صورته ولكن علينا ألا نرى التستر عيبًا، والعفاف عارًا، وحسبنا تفكيراً برؤوس غيرنا، ونظراً بعيون عدونا المترمدة، وقد سأل رجل ابن عمر: ماذا ألبس من الثياب؟، فقال: ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك به الحكماء.

ثم اعلموا أيها المسلمون: أننا لو جمعنا ألف شاب، وأجلبنا لهم عشرات الوعاظ ليلقنوهم الصيانة عامًا كاملاً، ثم يُجلب لهم كاسية عارية، تترامى مفاتنها في كل اتجاه، لهدمت في ثوان معدودة ما بناه أولئك في عام كامل.

فاتقوا الله معاشر المسلمين، وحذار من الوقوع في فتنة اللباس، والخروج به عن مقصوده ومبتغاه، ولا يغوينكم الشيطان بزخرف من القول والعمل: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢، ٣٣].

بارك الله لي ولكم..

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن للباس والزينة شأنًا عظيمًا في ملة الإسلام، وما جاء في ذلك من الكتاب والسنة ليحل محلاً كبيرًا في الأسفار والتصانيف، فقد عقد أهل العلم في كتبهم أبوابًا وفصولاً مستقلة، تخص اللباس وحده، ومن خلال الاستقراء والتتبع، وُجد أن الأسباب الداعية إلى تحريم بعض الألبسة لا تخرج عن واحد مما سيأتي:

فمن ذلك: التحريم بسبب ما يُفضي إليه من فتنة، كظهور عورة المرأة، أو تجسيد جسمها وتقسيمه، أو إخراج العينين أو الوجه أو الكفين ونحو ذلك مما هي مأمورة بستره عملاً بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ**﴾ [الأحزاب: ٥٩].

قال ابن كثير رحمه الله: الجلباب هو الرداء فوق الخمار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينًا واحدة.

وبهذا يعلم أيها المسلمون أن ما يقوم به جملة من النساء اليوم، من تغطية الوجه مع إخراج العينين وما جاورهما من الحواجب، وطرف الأنف، وشيء من

الخدين، أن هذا كله خطأ واضح، ومسلك مشين، فيالله مـاذا أبقت المرأة من جمالها حينئذ، إنها بمثل هذا ربما سترت القبيح وأبرزت الحسن، والشارع الحكيم أذن لها في إبراز إحدى العينين لترى بها الطريق، لا أن يراها أهل الطريق.

وسبب آخر من أسباب التحريم: وهو ما يكون لأجل الشهرة والتباهي والخيلاء، لقوله ﷺ: «**من لبس ثوب شهرة، ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة**» رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي.

وكذا إسبال الثياب وجرها أسفل الكعبين، سواء كان ذلك خيلاء أو لم يكن، ولا ينبغي أن يفرق بين من يسبل لأجل الخيلاء، ومن يسبل بلا خيلاء، والجواب الصحيح في ذلك هو أن ما أسفل الكعبين إذا لم يكن خيلاء فهو في النار، وأما إذا كان خيلاء فإن العذاب يكون أشد يقول ﷺ: «**من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**» رواه الشيخان، وفي رواية: «**ما أسفل الكعبين ففي النار**»، هذا في حق الرجل، وأما في حق المرأة، فإنها تسدل ثوبها حتى يغطي قدميها؛ لأن القدمين عورة بالنسبة لها.

وسبب ثالث من أسباب التحريم: وهو التشبه، كتشبه النساء بالرجال، والرجال بالنساء في اللباس، أو التشبه بالأعاجم وأهل الكفر في زيهم، يقول عبد الله بن عمرو: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين، فقال: «**إن هذه الثياب ثياب الكفار، فلا تلبسها**» رواه مسلم.

وفي الصحيحين أن عمر كتب لولاته: «وإياكم والتنعم، وزي أهل الشرك، ولبوس الحرير».

ومما قاله الفقهاء: يحرم من اللباس ما خالف زي العرب، وأشبه زي الأعاجم وعاداتهم.

وما أحسن ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية، مبينًا لهذه المسألة فيقول: إن

المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلاً بين المتشابهين يقودان إلى موافقة في الأخلاق والأعمال، فلابس ثياب أهل العلم مثلاً يجد في نفسه نوع انضمام إليهم، وهكذا بالنسبة لثياب الجند المقاتلة، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق أتم، ثم يؤول الأمر إلى ألا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط.

وقولوا مثل ذلك ـ عباد الله ـ في مشابهة الفسقة من مغنين وفنانين من أهل الكفر وغيرهم ممن ليس على طريق الحق.

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن الواجب والمسئولية على كل عاتق نصيبه منها، من ولاة وعلماء، ودعاة وأولياء أمور.

كما أن على التجار مسئولية عظمى تجاه ذلك، إذ عليهم أن يوجدوا البديل المباح، وأن يكفوا عن بيع ما يخدش الحياء، أو يكشف العورات، وليحذروا مغبة فعلهم، وليعلموا أن عليهم إثم ما يبيعونه، وإثم من يلبسه إلى قيام الساعة من غير أن ينقص من أوزار من يلبسه شيء، وليحذروا الوقوع في أن يكونوا بفعلهم هذا ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وأنهم مسئولون عن أموالهم من أين اكتسبوها وفيم أنفقوها.

اللهم صل على محمد..

* * *

«حقيقة الإرهاب»

الخطبة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فيا أيها الناس:

لقد ظل العالم الإسلامي بأسره، مئات الأعوام وهو متجانس متماسك يشد بعضه أزر بعض، ويأرز إلى عقيدته الجامعة كلما هدد كيانه خطر أو ادلهم خطب.

بل لقد بلغت ولاية الإسلام على هذه البسيطة ما بين نقطة المغرب الأقصى إلى حدود الصين، كلها أقطار متصلة وديار متجاورة، يترحَّل فيها المسلم حيث شاء، ليس له أرض يسميها بلادَه، وإنما بلده هنا أو قل هنالك حيث يبعثها المنادي الله أكبر.

يفضل الفقر والشظف على لزوب أرض يصدأ القلب في رباها، أقطار إسلامية، أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، وخلفاءُ أجلاء، فأداروا بشوكتهم الإسلامية وجه الأرض إلا قليلاً، ولا يهزمُ جيش إلا لمامًا، ولا يردُ قول على قائلهم، ولا تدخل عليهم داخلة من نفس ضعيفة متهالكة، قلاعهم وصياصيهم متلاقية، حضارتهم ومغارسهم في سهوبهم وأخيافهم.

بيد أن الفساد بقضه وقضيضه لما دب في نفوس كثير من المسلمين بمرور الزمن، وتمكن من طباعهم حرصٌ وطمع هما باطلان قطعًا، ثُمة انقلبوا بعد ذلك مع الهوى، وقنعوا بألقاب ومسميات، هي أشبه بالسنور يحكي انتفاخًا صولة الأسدَ، وما يتبع ذلك من مظاهر الفخفخة، وأطوار النفخة، ونعومة العيش، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم، المخالِف لهم في الدين والعقيدة، ولجأوا للاستنصار به، وطلب العون منه، واستجَدائه بالمدمع لا بالمدفع، استبقاء لإشباع مآرب بالية، ونعوم زائلة.

ومنذ فقدان الأندلس وقع تغيّر رهيب في حياة المسلمين، وأخذت

أرضهم تنقص من أطرافها، والله يحكم لا معقب لحكمه، ففقدت أقطار وأمم، وغدت سهولهم بلاقعَ، وأوديتهم أباطحَ، حتى صاروا أثرًا بعد عين، وخبرًا بعد ذات، كما انتُهكت محارم ومقدسات، ودارت رحى الحرب عليهم، حتى تداعت عليهم أمم الكفر وشعوبُه، ودب فيهم قول المصطفى ﷺ: «**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها**، قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟، قال: **بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن**، قالوا: وما الوهن؟، قال: **حب الدنيا وكراهية الموت**» رواه أحمد وأبو داود.

فانظروا عباد الله إلى الوهن، الذي هو سر الضعف الأصيل، حيث يعيش الناس عبيدًا لدنياهم، عشاقًا لأوضاعها الرتيبة، تحركهم شهواتهم وشبهاتهم، وتموج بهم كالخاتم في الأصبع، وتسيرهم الرغائب المادية، كما يسير الثور في الساقية، يتحرك في مدار محدود فاقد الهدف، معصوب العينين.

وهذا هو الوهن ـ عباد الله ـ حينما يكره المسلمون الموت، ويترقبونه كامنًا في كل أفق، فيفزعون من الهمس، ويألمون من اللمس، ويوثرون حياة يموتون فيها كل يوم موتات، على موت يحيون بعده حياة سرمدية.

وإن تعجبوا أيها المسلمون فعجب مواقف كثير من المسلمين اليوم، وقد أحاطت بهم الغواسق من كل جانب، فتخبطوا خبط العشراء، أفلست النظم، وتحطمت كثير من المجتمعات، وتدهورت القوميات والعولمة، وأنتنت الحريات اللادينية المزعومة.

فالعجب كل العجب أن يكون النور بين أيديهم، والرائد نصب أعينهم،

ثم هم يلحقون منهومين بركاب الأمم الكافرة، في نهجهم وسلوكهم ويستسمنون ذا ورم، فلا يستطيعون رشاداً، ولا يهتدون سبيلاً، وحالهم ـ عباد الله ـ:

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

والواقع العلقم ـ أيها المسلمون ـ هو أن أهل الكفر والإلحاد أشغلوا المسلمين عن نورهم، وأبعدوهم عن مصدر العزة، وأغروهم بأطياف ومضات زعموهما في السياسة تارة، وفي الإعلام أخرى، وفي المال والقهر والجبروت ثالثة، ورابعةٍ في مكافآت الصمت وغض الطرف إلا من رحم الله.

أيها المسلمون:

سؤال يفرض نفسه بقوة على واقع المسلمين اليوم وهو: لماذا ولأي شيء؟ وما هو السبب؟ حين لا نبحث عن أسباب هزائمنا وخسائرنا الفادحة في الأموال والأهلين والسلوك وصدق الانتماء؟، هل أذكاها عوج خلقي؟ أو خلل سياسي واقتصادي أو غش ثقافي؟، أو انحراف عقدي؟، أو إلى مزيج متفاوت النسب من هذه العلل جميعًا؟.

ما هي المعاصي الخُلقية والسياسية والثقافية التي ارتكبها أهل الإسلام فأصابهم بسببها ما أصابهم؟.

إنه لحتم على كل عاقل منصف أن يبين ويوضح كما أن على أصحاب الألسن وحملة الأقلام، ألا يقترفوا خيانات قاتلةً في حق دينهم وأمتهم بتجاهل تلك القَضايا بله الخوض فيها على غيرٍ مراد الله ورسوله ﷺ.

ألا فليعلموا أنهم بتجاهلهم لها يؤخرون يوم النصر ولا يقدمونه، وأن

اللجة التي تحمل بعض أولئك على ذاك التجاهل تقودهم ومجتمعهم إلى الغرق، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلى من رحم، ولا يُرحم إلا المخلصون الصادقون المصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

فهل بعد ذلك يرتفع شعار الإسلام وترفرف رايته في تحليل القضايا الإسلامية؟، أم تبقى تحت الرايات العبية، والنهوج اللقيطة، لنبلغ بها القاع والعياذ بالله.

أيها المسلمون:

المؤمن الصادق، والغرُ الغيور لا يمل كثرة الحديث عن مآسي المسلمين، وانتهاك حقوقهم، وسلب أراضيهم، لأن الكأس تفيض عند امتلائها، ولابد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك، أو على أقل تقدير يتوجع لك، لأن مآسي المسلمين اليوم أصبحت نقطة ارتكاز في ميدان الجهاد الإسلامي، وساحتها محطة امتحانٍ وكشف لقوة المسلمين وغيرتهم على دينهم وأوطانهم وحرماتهم.

ونحن من هذا الحديث لسنا ننقب عن نائحة مستأجرة تسمعنا نحيبها، ولا عن ظئر عاريَّةً مؤداةً، تودع قضايانا ترائبها، لأن البكاء لا يحيي الميت، والأسفَ لا يرد الغائب، والحزنَ لا يدفع المصيبة، ولكن العمل مفتاح النجاح، والصدق والإخلاص مع متابعة الرسول ﷺ سلَّم الفلاح ودرجاتُه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وعلو المسلمين وهبوطهم إنما هو في الحقيقة بمقدار قربهم من ربهم، وإحيائهم لشعيرة الجهاد في سبيل الله، التي هي ذروة سنام الإسلام، يقول المصطفى ﷺ: «من لم يغز أو يجهِّز غازيًا، أو يُخلف غازيًا في أهله بخير،

أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة» رواه أبو داود وابن ماجه، والقارعة: الداهية.

إنه ما رام المسلمون وحدةً وإخاءً فعليهم أن يُودعوا في ضئاضئهم حبَّ الأخوة الإسلامية والولاءَ والبراءَ عليها، والتناصح والتناصرَ من أجلها، إن هم فعلوا ذلك، وإلا فلابد يومًا أن يُقضموا ويُهضموا، والنبي ﷺ يقول: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» رواه البخاري من حديث أنس.

إن قضايا المسلمين الدامية، يختلط فيها الشجو بالتعزية، والرضا بالتهنئة، رضًا وتهنئة حينما يستحضر المسلم مرأى أولئك الأبطال الأشاوس الذين يقفون في وجوه الغازين الحاقدين، ليسترجعوا سَلَبَهم وأرضهم أمام موحشاتٍ مدهشاتٍ مهاولة، المخاطر أدناها، والموت أعلاها.

وشجوٌ وتعزيةٌ حينما يقع ما يقع على مرأى من المسلمين ومسمع فلا يجدون جوابًا، ولا يحيون ألبابًا، إلا من رحم الله، والمشاهد من أمثال هؤلاء أنهم قساة القلوب، غلاظ الأكباد، وكأنما قدت قلوبهم من حجر، حكموا على أنفسهم بالذلة، وعلى مجتمعاتهم بالحطة، حتى لم يطلبوا رفعةً، أو قنطوا فلم يكن لهم أمل؛ بل اغتالتهم غائلة الاستكانة، فوطنوا أنفسهم على أن يشقوا ليسعد غيرُهم، فلا يهتمون إلا بحاجة مأكلهم ومشربهم، وكأنهم النمالُ الحمالةُ لا تستفيد مما تحمل شيئًا.

والمثقفون من أمثال هؤلاء يندبون ويلطمون، ويتلقون المواساة والعزاء فحسب، والعدو الكافر الحاقد يخفض جناح الذل من رحمته وعدله المزعومين، على دعم وتحصين منظماتٍ عالميةٍ لمحبي الكلاب، وأصدقاء الحيوانات الأليفة زعموا.

ألا إن من دعائم الإسلام الراسخة تحقيقَ روح الإخاء، والتضامن

الإسلامي بين المسلمين بعامة، فيأخذ القوي بيد الضعيف، ويشد المقتدر من أزر العاجز، كما أنه من الواجب عليهم أن يبحثوا في كل مظنة ضعف عن سبب قوة، ولو أخلص المسلمون في طلب ذلك لاستحصلوه، ولصار الضعف قوة، لأن الضعف قد ينطوي على قوة مستورة يؤيدها الله بحفظه ورعايته، فإذا قوة الضعف تهد الجبال، وتحير الألباب ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الفتح: ٤].

سمع معاوية رضي الله عنه وأرضاه أن رجلاً من أعدائه شرب عسلاً فيه سم فمات، فقال: إن لله جنوداً منها العسل.

إن الحديث عن القوة النابعة من الضعف ليس دعوةً إلى الرضا بالضعف أو السكوت عليه، بل هو دعوة إلى استشعار القوة حتى في حالة الضعف، وما أدراكم ربما صحت الأجسام بالعلل، فينتزع المسلمون من هذا الضعف قوةً تُحيل قوة عدوهم ضعفًا، وينصرهم الله نصرًا مبينًا ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤].

فاتقوا الله معاشر المسلمين، وكونوا جميعًا على خندق واحد مع إخوانكم المسلمين في كل مكان، أقيموا العزم في وجه التهاون، والشدة في وجه التراخي، والقدرة في وجه العجز، وأما أهل الكفر والإلحاد فقد كفاناهم الله بقوله: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن والسنة.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ورضي عنهم أجمعين.

أما بعد:

فلعل المسلمين في هذا الزمن هم أكثر الناس آلامًا، ولعل أرضهم وديارهم وأموالهم هي التي يستنسر بها البُغاث، ويستنوق الجمالُ، وتستنمرُ الثعالب، فهو عصر لم تسلم فيه براجمهم من الأوخاز، فنهشتهم شعوب الكفر، وطحنهم تنازع البقاء.

والمحافل الدولية الكافرة ماذا عساها أن تفعل إذا كانت على غير الإسلام، وإن زعموا العدل فيها، فمنطق الحال أن العدل عند بعضهم لا يوجد إلا حيث يوجد الجور، ولا يوجد السلم إلا حيث توجد الحرب.

إنها في الحقيقة تصف المالك الطريد إرهابيًا لا حق له، وتجعل اللص الغالبَ على المقدسات رب بيت محترمًا، يملك الأرض لا بالإحياء الشرعي ولكن بالإماتة الجماعية، والقهرِ النفسي، بل لربما رُمق إلى بعض المسلمين أن يلعقوا جراحهم ويبتسموا للناهب، وأن يعتبروا حقهم باطلاً، وباطل غيرهم حقًا، بل إن لسان حالهم يقول لهم: حقنا عليكم أن تقولوا:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم ... وتخطئون فنأتيكم ونعتذر

كمثل الحسك المثلث كله شوك حيثما قلبته، ثم يسدلون عليهم بعد ذلك

أستار الغمط وبطر الحق، ومن ثَمَّ تُخلق آثارٌ عبريةٌ على أشلاء معالم عربية مسلمة، ويُجعل الحاجز الكَاذب امتداداً لهيكل ماضي مختلق، إنما هو إعصارٌ من الوهم، وتيارٌ من هواجس الخيال، يحلقون بسببه إلى مواقع رغبتهم الخربة، سائرين لا يطرف لهم طرف، ولا يغمض لهم جفن، حتى يعلنوا السيادة، وتنفصم علائق الآمال لدى المشرئبين لعود حقوقهم السليبة، بعد أن مسهم الضر من إفراط ذوي المطامع حتى ردوهم عن بلوغ الأرب، وهموا بما لم ينالوا، ثم وقرت أسماعهم عن حسيس همسات الغيلة.

ألا إن من اللافت الملاحظ أن هناك خليطًا ممتزجًا من الساسة والمتفيهقين، وسماسرة الاستعمار الثقافي هم في الحقيقة جهلةٌ خراصون، يهرفون بما لا يعرفون، والله أعلم بما يُوعون، تسربلوا بسرابيل الإفرنج، هُم من أحرص الناس على التشدق بهذا البدِع الجديد الذي يعلنون من خلاله الحربَ على الدين الإسلامي نفسه، تحت شعار محاربة الإرهاب، تلكم الكلمة التي شغلت مناطقَ اللهازم فلاكتها الألسن، ورمت بها الأفواه في المحافل والمجامع كل مرمى، حتى صارت تكأةً للمتكلمين، يلجأ إليها العييُّ في تهتهته، والمتربص في ثغثغته، ممن يتلونون كالحرباء، ويتشكلون كالأغوال، ممن لم يكمل رضاهم بالإسلام، وإن كانوا لم يقنعوا بالكفر، حتى عدوها عنوانًا على النقص، فإذا ما رأوا ملتزمًا بالدين عبسوا في وجهه وبسروا.

والحق المقرر ـ عباد الله ـ الذي لا ينكره إلا غِر مكابر: أن تحجب المرأة المسلمة ليس إرهابًا، وليس رفض تحكيم غير شرَع الله إرهابًا، إن هذا كله دين، والتشبث به فريضة، والدفاع عنه لون من ألوان الحقوق لكل مسلم، ومن ثَمَّ فإن عقلاء المسلمين يأبون مسلك الرويبضة، الذين يتصايحون ضد هذَا الاتجاه، ثم هم يرون أن يحمل هؤلاء نوع من الفراغ الديني هو أخطر

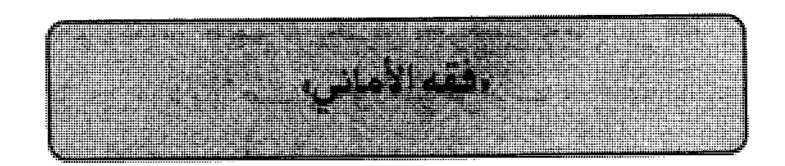
وأهوى، والفراغ الديني الذي هو انسلاخ من شعائر الإسلام كفر بالله ورسوله ﷺ، لأن الفارغين من الإيمان بالله وبرسوله تربوا على موائد الاستعمار، ورضعوا من ثُدِّيه، فهم يرتقبون أي تصرف غير موجه الوجه الشرعي حسب الاجتهاد، ليجتاحوا حقيقةَ الإيمان كلها.

والمسلمون بعامة عليهم ألا يكترثوا بأمر ليس له من دين الله سناد، وليس هو من الحق في ورد ولا صدر، ولا هو من بابته، وأنهم سيلاقون في جُرأتهم على الانتساب إلى الدين عنتًا وشدةً، فلا ينبغي أن يعنيهم قسوة النقد، ولا جراحات الألسن ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

إن هذا البلاء ليس بدعة في العصر الحديث، الذي بلغ الغاية في تشويه الحقائق، بل إن منطق الحاقدين واحد، وإن تطاولت القرون، وامتدت سحائبُها، فلقد قال الله جل وعلا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ولكن صدق الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩].

اللهم صل على محمد..

* * *



الخطبة الأولى

الحمد لله على تقديره، وحسن ما صرف من أموره، نحمده سبحانه على حسن صنعه، ونشكره على إعطائه ومنعه، يخير للعبد وإن لم يشكره، ويستر الجهل على من يظهره، خوف من يجهل من عقابه، وأطمع العامل في ثوابه.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه، ما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه، ولا شراً إلا حذرها منه، حتى تركنا على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، والذين ساروا على طريقه، وسلكوا نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد:

فعلى المسلمين جميعًا أن يتقوا الله سبحانه، ويعبدوه جل شأنه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، ومن جعل بينه وبين عذاب الله وقاية فقد اتقاه، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

أيها الناس:

للمرء مع نفسه في هذه الحياة أسرار وأطوار، وهو لا شك منذ أن يبدأ

مرحلة التمييز المبكر، يبدأ تفاعله مع الحياة ومناحيها، في أولى مراحلها، لا يثنيه عن ذلك براءة الطفولة، ولا غيب المستقبل، ولا صفر السجل من ماضي مجرب، كل ذلك لا يثنيه البتة عن أن يستعجل المستقبل، ويملأ فراغه المبكر مشرئبًا بكم هائل من الأماني والآمال، تلكم الأماني التي لا تُصْغ للهرم أو الشيب، كعجلة دائرة، لا يحول دونها إلا الموت ورسول الله ﷺ يقول: «**يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان: الحرص على المال، والحرص على العمر**» رواه مسلم.

إن من أعجب ما في المرء حرصه على كشف ما مُنع منه، وتوقه الجارف إلى ما لم ينل، والكثرة الكاثرة منا مبتلاة بتضخيم الأماني واستسمانها، ولربما لم يسعف الزمان على تحقيقها، أو قد تضعف الآلة فيبقى المتمني في عذاب، وقد قيل: لو أمر الناس بالجوع لصبروا، ولو نهوا عن تفتيت البعر - أجلكم الله - لرغبوا فيه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا لشيء، والمقولة المشهورة: أحب الشيء إلى الناس ما منع، ولهذا لو قعد الإنسان في بيته شهرًا برمته لم يصعب عليه، ولو قيل له: لا تخرج من بيتك يومًا، لطال عليه ذلك اليوم.

وإن تعجبوا عباد الله، فعجب حرص المرء على التمني والإلحاح بربه على تحقيقه، بل كلما زاد تعويقه ازداد إلحاحه، ثم ينسى المرء أن ربه منعه ذلك إما لمصلحته، فرب معجل هو أذى، وإما لذنوبه، فإن صاحب الذنب بعيد من الإجابة، وفي الجملة تدبير الحق سبحانه للمرء خير من تدبير المرء لنفسه، وقد يمنعه ما يتمنى ابتلاء ليرى صبره، فالله الله في الصبر الجميل، يرى صاحبه عن قرب ما يسر، ويعلم أن كل ما يجري أصلح له عطاء كان أو منعًا.

التمني - أيها المسلمون - مأخوذ من المنية، وجمعها أماني، وهو أعم من الترجي، لأن الترجي مخصوص بالممكنات، والتمني أعم من ذلك، وقد عرفه أهله على أنه إرادة تتعلق بالمستقبل، فإن كانت في خير من غير أن تتعلق بحسد فهي مطلوبة، وإلا فهي مذمومة.

والناظر في واقع المسلمين اليوم، في شروخهم وشباباهم من جهة الأمنيات والتطلعات المطروحة، لن يجد كثيراً يسره، إذ يرى نفسه بين خليط ممتزج امتزاج المعبوط المقسور، من التناقضات والمتعارضات، مما يجعله لا يبعد النجعة إذا أوقع حدسه في تصنيف عقول كثير منهم.

وقد قيل: لتعرف حجم عقل المرء سله عن أمنيته، وأحسن هؤلاء من قصر أمنيته على أمور جبلية، كبنت عضلها أبوها ظلمًا فتتمنى الزواج، أو ربِّ أسرة مناه أن يرى ما يسره ممن يعول، أو كزارع يكدح، وتاجر يسافر، ومريض يتداوى بالعلقم، فالأول لحصاده، والثاني لربحه، والثالث لشفائه، وهلم جرا.

ولو لم يكن من التمني عندهم إلا دفع النشاط، وتخفيف الويلات لكفى، وكأنهم يُروون بها على ظمأ، فإن تحققت فهي أحسن المنى، وإلا فهم يعيشون بها زمنًا رغدًا، وما كل ما يتمنى المرء يدركه.

والعيب هنا - أيها المسلمون - ليس في مبدأ التمني وطلبته فحسب، كلا، فالتمني جبلة جبل الله الخلق عليها، ولكن العيب هنا كل العيب في فوضى الأمنيات، والانحطاط الثقافي والمعرفي والروحي من نفوس الكثيرين، حتى إن أحدهم ليصل إلى درجة الأماني الدنيئة، التي لا يقرها شرع ولا عقل، وإنما طالتها لوثة الترويج الإعلامي المغلوط، وأوصال العولمة المعرفية، دونما سياج للحشمة والعفاف، وما يحسن ويقبح.

نعم التمني مصدره ومحله القلب، وما يطلقه من طموحات ورغبات، وهذا لا يُعفي المرء من تقييد همه، وأن محبة الإثم إثم وإن لم يقع، وفي مثل هؤلاء يقول ابن الجوزي: نعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا نرى منهم ذا همة عالية فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله وعليكم بملاحقة سير السلف.

وجاء عند الطبراني مرفوعًا أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها**».

ومع ذلك - أيها المسلمون - فمن الناس جُحَّاد بالله الخالق، يعيشون بأنفسهم فحسب، تجدونهم أيأس الناس، وأكفر الناس، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، نظروا إلى الدنيا وإلى الناس وإلى حكمة الله بمنظار أسود قاتم، يرون الأرض غابة، والناس وحوشًا، والعيش عبئًا لا يطاق.

ليس للأماني الصادقة محل في أفئدتهم حتى ولا جنة الخلد، فهم لا يبكون ميتًا، ولا يفرحون بمولود، ويرون أن الميت للدود، والمولود لدود، وحاصلهم ألا أمنية لديهم في أن يكون لهم أمنية، فعبروا عن قنوطهم وكفرهم بالله، بما يبثونه من اللغط والخلط من خلال محادثات ومقالات في الصحافة تارة، ومن خلال روائيات تارات وتارات، يُعدمون انتماءهم للدين بالعدامة، ثم يشمسون أرواحهم لتفوح جيفهم، فتخطفهم الطير أو تهوي بهم الريح إلى كراديب في شرق الوادي السحيق، والله المستعان.

ولا غرو - أيها المسلمون - في انتشار الأماني الكاذبة، والطموحات الساذجة، والتطلعات الدنيئة في هذه العصور المتأخرة، التي ضعف فيها الوازع الديني الزاجر، ولله كم من أمنيات كانت وستكون مولِّدة لأمنيات أخرى هي على الضد، عند اختلال الموازين يقف لها شعر المرء المسلم.

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني مكان صاحب هذا القبر، وليس به إلا البلاء**»، يقول ابن عبد البر: سيكون هذا لشدة تنزل بالناس، من فساد الحال في الدين، أو ضعفه، أو خوف ذهابه.

وقد أخرج الحاكم عن أبي سلمة قال: عدت أبا هريرة فقلت: اللهم

اشف أبا هريرة، فقال: اللهم لا ترجعها. إن استطعت يا أبا سلمة فمت، والذي نفسي بيده ليأتين على العلماء زمان الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر، وليأتين أحدهم قبر أخيه فيقول: ليتني مكانه.

وهذا - أيها المسلمون - لا يعارض قول النبي ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله يزداد، وإما مسيئًا لعله يستعتب**» رواه البخاري وغيره، لأن هذا محمول على زمان لم تعم فيه الفتن والبلايا التي يكون الموت فيها أسلم من الحياة.

عباد الله: للمقولة المشهورة دور في تمييز الخبيث من الطيب، والزين من الشين، وبالضد تتميز الأشياء، وهذه ملامح موجزة سريعة عن بعض أماني السلف الحسان:

يقول الرسول ﷺ: «**لو كان عندي أحد ذهبًا لأحببت ألا يأتي عليَّ ثلاث وعندي منه دينار، ليس شيء أرصده في دين علي أجد من يقبله**» رواه البخاري.

وذكر ابن قتيبة، وابن عبد البر، وابن خلكان: أنه قد اجتمع عبد الله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبدالملك بن مروان بفناء الكعبة، فقال لهم مصعب: تمنوا، فقالوا: ابدأ أنت. فقال: ولاية العراق، وتزوج سكينة ابنة الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله. فنال ذلك، وتمنى عروة بن الزبير الفقه، وأن يحمل عنه الحديث، فنال ذلك، وتمنى عبد الملك الخلافة فنالها، وتمنى عبد الله بن عمر الجنة.

وذكر الطبراني، والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن فيَّ ثلاث خصال: إني لآتي على الآية من كتاب الله، فلوددت أن جميع الناس يعلمون ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه

فأفرح، ولعلي لا أقاضي إليه أبدًا، وإني لأسمع الغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين، فأفرح، ما لي به سائمة».

ويقول ابن الجوزي رحمه الله محدثًا عن نفسه: لقد بلغت السن، وما بلغت ما تمنيت، ـ وكان رحمه الله قد تمنى كثرة العلوم والمعارف ـ، يقول رحمه الله: فأخذت أسأل الله تطويل العمر، وتقوية البدن، وبلوغ الامال، وكان هذا السؤال في ربيع الآخر من سنة خمس وسبعين، فإن مد لي أجل، وبلغت ما أملته فسأخبر ببلوغ آمالي، وإن لم يتفق فربي أعلم بالمصالح، فإنه لا يمنع بخلاً، ولا حول ولا قوة إلا به.

وكان عمره رحمه الله آنذاك خمسة وستين عامًا، ثم مد في عمره ثنتين وعشرين سنة أخرى، فكانت الوفاة سنة سبع وتسعين، حصل له فيها من البركة في العلم والعمل الشيء الكثير.

ولا جرم عباد الله، فرسول الله ﷺ يقول: «**إذا تمنى أحدكم فليستكثر، فإنما يسأل ربه**» رواه عبد بن حميد، وهو على شرط البخاري ومسلم.

هذه لمحات موجزة من تمني المعالي مع صدق وجد، لأن الحرمان بالكسل موكل، ومن ينصب يصب عن قريب غاية ما يتمنى، وقد قال رسول الله ﷺ: «**احرص على ماينفعك، واستعن بالله ولا تعجز**» رواه مسلم.

وقد جاء في الصحيح من حديث ربيعة بن كعب أنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال له: «**أعني على نفسك بكثرة السجود**» رواه مسلم.

فالذي ينبغي لمتمني الخير ألا يقصر في شوطه، فإن سبق وحصل المقصود فهذا المراد، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يلم، سمع الفاروق قومًا من أهل اليمن يتمنون المال، وهم قاعدون بالمسجد، فعلاهم بدرته وقال: لا

يقـعـدن أحـدكم عن طلب الرزق، ويقـول: اللهم ارزقني، وقـد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وإن الله يقـول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

ويالله كم من متمن بصدق وجد نال ما تمنى بإذن الله، فإن لم ينله كله نال بعضه، ولقد أحسن من قال:

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى ... فمـا انقـادت الآمـال إلا لصـابـر

عباد الله:

ثم أمر مهم ليس يخفى، مما يتعلق بموضوعنا، وهو العب من التمني والآمـال الكاذبة، التي هي أقـرب مـا تكون من أحلام اليقظة، وأطيـاف الخيـال، لاسيما القـاصرة منهـا، والتي لا ينتفع بها غاد ولا رائح، وإنما هي أماني ملء البطون، وإشباع الفروج، وما أشبه ذلك مما يجلب عليه الشيطان بخيله ورجله، ويعدهم به ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، ومن كان مرعى همومه وعزمه في مثل هذا روض الأماني لم يزل مهزولاً ثملاً.

وقد قال ابن القيم رحمه الله في مدارجه عن مثل هذا: إن التمني من مفسدات القلب، وهو بحر لا ساحل له، وهو الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس، وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وكلٌ بحسب حاله: من متمن للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض، والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه وقد فاز بوصولها، والتذ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال فإذا يده والحصير، بخلاف أماني المؤمن الصادق، فهي نور حكمته، وأماني أولئك في خداع وغرور.

وذكر ابن قتيبة في عيون أخباره رحمه الله: أن ناسكًا كـان له عـسل

وسمن في جرة، ففكر يومًا فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري خمسة أعنز، فأولدهن في كل سنة مرتين. . إلى أن قال: فأتخذ المساكين والعبيد والإماء والأهل، ويولد لي ابن، فأسميه كذا، وآخذه بالأدب، فإن هو عصاني ضربت بعصاي رأسه - وكانت في يده عصى، فرفعها حاكيًا للضرب، فأصابت الجرة فانكسرت، وانصب السمن والعسل -.

وكان أبو مسلم الخراساني في حال شبيبته لا يكاد ينام، فقيل له في ذلك، فقال: ذهن صاف، وهم بعيد، ونفس تتوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج والرعاع، قيل: فما الذي يبرد غليلك؟، قال: الظفر بالملك، فحصل له شيء من مراده، وانتصب في طلب الولايات، فكم قتل وفتك، حتى نال بعضها، فلم تزد على ثمان سنين ثم اغتيل.

﴿ **أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ** ﴾ [النجم: ٢٤، ٢٥]، أي: ليس كل من تمنى خيراً حصل له، والمهم أن يتفطن المرء إلى قول النبي ﷺ: «**إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته**» رواه أحمد ﴿ **لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾ [النساء: ١٢٣].

فالدين - عباد الله - ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقته الأعمال، وليس كل من تمنى شيئًا حصل له، ولا كل من قال إنه على الحق وتمناه سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ** ﴾ [الحديد: ١٤]، يقول الحسن البصري رحمه الله: المنافق يقول: سواد الناس كثير، وسيغفر الله لي، ولا بأس علي بسيئ العمل، ويتمنى على الله، وفي الحديث الصحيح عند الترمذي: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن من محاسن الدين الإسلامي أنه لم يدع شيئًا إلا وبين لنا فيه بيانًا، حتى الخلاء وما يتعلق به، ولذا فإن التمني من جملة ذلك، فقد يكون في الخير لعموم المسلمين، كما جاء عن ابن عباس في الخصال الثلاث، وكمدح النبي ﷺ لمتمني الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله كالقائل: «**لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان الذي يتقي ربه في ماله، ويصل فيه رحمه، ويخرج منه حقه**، فقال ﷺ: **هم في الأجر سواء**»، وأمثال هؤلاء أصحاب قلوب طاهرة برة، وأنفس زكية حرة، تحب للناس ما تحب لأنفسها.

وثمَّ أنفس أخرى على النقيض من ذلك، لا تتمنى الخير لأحد، كأن ليس في الدنيا إلا هي، للحسد في قلوبها جمرة تتقد كالأتون، تود وتتمنى زوال نعمة الأخ المسلم، وأن تراه محرومًا مفلسًا، وتقع فيما حذر منه النبي ﷺ بقوله: «**إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**» رواه أبو داود.

ومثل هذا عباد الله، من التمني المحرم الذي يأثم به صاحبه، ويوقعه في المهالك، وهو الذي عناه الإمام الشافعي بقوله: «لولا أنا نأثم بالتمني،

لتمنينا أن يكون كذا وكذا».

ولأجل ذا عباد الله حذر النبي ﷺ من الوقوع في ذلك أشد الحذر، وجعل ما يتمناه المرء بقلبه من الإثم من جنس زنا القلب وفحشه، جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: «**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر**، وزنا **اللسان المنطق**، والنفس **تتمنى وتشتهي**، والفرج **يصدق ذلك** أو **يكذبه**»، وعند أحمد في مسنده: «**وزنا القلب التمني**».

ألا وإن مما يحرم تمنيه، والتطلع إليه ما يقع من بعض ضعاف النفوس، من ذوي العقول المريضة، والأفكار الدخيلة، والذين يريدون أن يؤلفوا الأمة على التنكر لأحكام الشريعة، والخروج عن إطارها، والقدح في عدالتها، وذلك من خلال إبداء التمنيات، رجالاً ونساءً، عن قضايا المرأة، والزج بها خارج سياج الشرع ومحبة شيوع تحللها، وعدَّ المرأة مهضومة الحق، مسروقة الكمال، فلهؤلاء يقول الباري جل شأنه: ﴿**وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النساء: ٣٢]، قالت أم سلمة: «يا رسول الله تغزو الرجال ولا تغزو النساء، ولنا نصف الميراث، فأنزل الله هذه الآية» رواه الترمذي وأحمد.

اللهم صل على محمد..

* * *

خطبة كسوف الشمس[(١)]

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيه المصطفى الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيا أيها الإخوة:

أوصيكم ونفسي المقصرة بتقوى الله سبحانه وتعالى، فتقوى الله هي عماد الإنسان في هذه الدنيا، وبها النجاة يوم أن يلقى الله جل وعلا.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]، كما أن تقوى الله سبحانه وتعالى هي وصيته للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، والتقوى هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، والوقاية تكون بفعل ما أمر الله جل وعلا وباجتناب ما نهى عنه سبحانه وتعالى، وكل ما يدخل تحت هذا الباب هو من الوقاية وبها النجاة، وأما ما عدا ذلك مما يظنه الناس وقاية فإنه لا شك باطل، وذلك من خلال الاعتماد على المال والشرف والنسب ونحو ذلك؛ إذ كل تلك الأمور زائلة يوم القيامة ولا يبقى إلا ما كان لله جل وعلا وهو التقوى.

ألا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الذل والسقم
وليس على عبدٍ تقي نقيصةٌ إذا حقق التقوى وإن حاك أو حجم

حتى ولو كان مما يحيك الثياب أو يحجم. والنبي ﷺ قد صح عنه في السنن وغيرها أنه قال: «**يا بني بياضة أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه**»، وقد

(١) هذه الخطبة ألقيت ارتجالاً ومن ثم فرغت من الشريط هكذا.

كان حجامًا رضي الله تعالى عنه.

لعمرك مـــا الإنسان إلا بدينـــه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقـــد رفـــع الإسلام سلمان فارسٍ وقـــد وضع الشرك الشقي أبا لهب

أيها الإخوة:

إن ماحصل في هذا اليوم ظاهرة كونية تتردد بين الحين والآخر، وهي بذلك تخالف الناموس الذي جعل الله سبحانه وتعالى حياة الناس قائمةً عليه وهو كسوف الشمس أو خسوف القمر، ومثل هذه الظاهرة ليست جديدةً على الأمة الإسلامية وقد تكررت سواءٌ كان في خسوف القمر أو كسوف الشمس، وقد حصل مثل ذلك في عهد النبي ﷺ وحصول مثل هذا الأمر فيه تذكير للعباد وتنبيه من خلال الالتفات إلى هذا التغير الذي يربك عليهم الحياة.

فكسوف الشمس وخسوف القمر يختل بهما ميزان النهار وميزان الليل، ومعلوم أن القمر يكون نورًا في الليل والشمس تكون ضياءً في النهار، فبانكساف هذا وخسوف ذاك يحصل هذا الاختلال، ومن هنا تأتي الفائدة العظيمة وهي التذكر؛ لأن الإنسان يغفل في هذه الدنيا وتلهيه أمواله ويلهيه أولاده وبنوه، وذلك هو زينة الحياة الدنيا.

فإذا ما حصل مثل هذا الأمر صار هناك من التنبيه ما يعينه على أن يرجع إلى الله جل وعلا وأن يلتفت إليه؛ لأنه بذلك يعلم أن الناموس قد اختل؛ لأن الله سبحانه وتعالى امتن على الناس بالقمر وبالشمس وذكر ذلك في كتابه حينما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ...﴾ «يعني دائمًا»، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٣]، إذًا الليل والنهار والشمس والقمر من رحمة الله جل وعلا على عباده، وقولوا مثل ذلك في أمور أخرى مما نشاهدها في الكون قد يختل بها الأمر، ولأجل هذا جعل الشارع الحكيم الارتباط به من خلال إقامة مثل هذه الشعائر العظيمة.

فليس الأمر مختصًا بالكسوف أو الخسوف فحسب، بل لقد صح عند أبي داود وغيره عن ابن عباس وعلي رضي الله عنهم أنهما كانا يصليان للزلزلة. وبذلك قال بعض أهل العلم.

وذلك لإحساس المرء أن مثل هذه الزلازل إنما تكون من باب التخويف والتذكير؛ ليلتفت الناس إلى ربهم وخالقهم، وإذا لم ينتبه المرء في مثل هذه اللحظة ويلجأ إلى الله فمتى إذن يكون التنبه ومتى يكون الاعتبار كما قال القائل:

إذا لم يغبر حائطٌ في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبارُ

وكذلك ثبت عن النبي ﷺ أنه إذا رأى ريحًا جثا على ركبتيه وسأل الله سبحانه وتعالى أن يصرف عنهم ذلك. ومثل هذا أيضًا ما يحصل في القحط وتأخر المطر؛ فإن الله شرع لعباده أن يلجأوا إليه في صلاة الاستسقاء والدعاء والاستغفار.

إذًا هذه ظواهر تختل على المرء لأجل أن يتذكر، وليس المراد هنا والمرد والاعتبار في أن يتتبع الإنسان هذا قبل حصوله تتبعًا دقيقًا لأجل أمور دنيوية بحتةٌ دون أن يرى في ذلك عبرةً وعظةً للعباد، وإن معرفة الناس بوقوعٍ مثل ذلك قبل وقته لا ينفي كونها عبرةً وعظةً للعباد، ولا شك أنه من خلال الواقع أن هذا الأمر قد يعرف قبل ذلك بالحسابات ونحوها، كما ذكر ذلك

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغيره من أهل العلم.

ولكن مع ذلك لابد أن تربط هذه الظواهر بالله جل وعلا وينبه على من يعملون في مثل هذه الأمور والذين يسمون بالجيولوجيين أو الفلكيين ونحوهم، الذين تأثروا بدراسات الغرب لأنهم لا يدينون بالله جل وعلا ولا يربطون هذه الظواهر بالله سبحانه وتعالى، بل ينسبونها إلى أمور مادية بحتة، وهذا خطأ واضح بل هذا من الشرك في الربوبية الذي يهون من شأنه ثلة من الناس.

فكما أن الشرك يكون في الألوهية كأن يعبد غير الله مع الله ويتخذ وسائط مع الله جل وعلا ويتخذ أنداد، فإن الشرك أيضًا يكون أكبر إذا كان في الربوبية، وقد صح بذلك الخبر في الصحيح من حديث زيد بن خالد الجهني حينما صلى بهم النبي ﷺ الفجر على إثر سماء ممطرة فقال: «**يقول الله جل وعلا**: «**قد أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال مطرنا بفضل كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب**».

وهذا شرك في الربوبية؛ لأن الأمطار ومنع المطر إنما هو من الله جل وعلا، فهؤلاء قد أشركوا في ربوبيته، وقولوا مثل هذا فيمن ينسب الظواهر وغيرها إلى غير الله جل وعلا.

إذًا الله سبحانه وتعالى ابتلى الأمة بمثل هذه الظواهر وجعلها للاعتبار والادكار، والنبي ﷺ إنما صلى صلاة واحدة لأن الكسوف لم يحدث في عهده إلا مرة واحدة كما ذكر ذلك جماعة من أهل العلم، والصفة الصحيحة لهذه الصلاة هي (ما شاهدتموها في هذا المكان وما طبقتموها في هذه البقعة المباركة وهذه الصفة التي عليها جماهير أهل العلم رحمهم الله تعالى).

وأحب أن أنبه على عجالة إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الظاهرة

للتشريع في عهد النبي ﷺ لأجل أن ينبه الناس لأنها حصلت في اليوم الذي مات فيه إبراهيم ولد النبي ﷺ فظن الناس أنها انكسفت لموت إبراهيم، فكان مما ذكر به النبي ﷺ: أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، يخوف الله بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة، وادعوا الله وتصدقوا واستغفروا وكبروا وتعوذوا بالله من عذاب القبر.

فكان نفي النبي ﷺ أن هذا الفعل لا يكون لموت أحد ولا لحياته ليس في الكسوف والخسوف فحسب، بل إن ما يعتقده بعض الناس من ربط الظواهر بما يسمى بالصالحين أو نحوهم من أولياء وغيرهم هذا باطل، فلا يظن الناس أن السماء تمطر لأجل وفاة فلان أو تجدب الأرض لأجل وفاة فلان أو يتغير الهواء وتشتد الريح ونحو ذلك من الظواهر فتربط بهؤلاء، كلا، فالنبي ﷺ نفى أن يكون ذلك مع أنه إبراهيم ابن النبي ﷺ؛ ولذلك توفي النبي ﷺ ولم يحصل في يوم وفاته شيء من ذلك، إلا أن بعض العرب ارتدوا عن الإسلام (هذا تنبيه).

تنبيه آخر: أن النبي ﷺ أشار إلى ما ينبغي أن يفعله المرء في مثل هذا الموقف.

والواقع أن كثيراً من الناس يظنون أن المشروع فقط هو الصلاة وينتهي عملهم بانتهاء الصلاة، فتجدون أن المرء يصلي ثم إذا انتهى خرج إلى بيته وعافس النساء والأولاد والذرية، وهذا خطأ واضح؛ لأن الكسوف ما بين فترة بدايته إلى نهايته طويلة جداً، وقد لا يستطيع جملة من الناس أن يطبقوا سنة النبي ﷺ في أن تستوعب الصلاة هذا الجزء الكبير، فلذلك يصلون وإذا انتهت الصلاة خرجوا وليس الموافق للسنة هكذا؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «**صلوا**»، وفي لفظ: «**وتصدقوا واذكروا الله**»، وفي لفظ: «**وكبروا**»، وفي لفظ: «**واستغفروا**»، وفي لفظ أيضًا: «**وتعوذوا بالله من عذاب القبر**». هذه

ستة أمور جاءت في الصحيحين ولم تخرج عن الصحيحين.

فإذا انتهت الصلاة وبقي وقت ولم ينحسر الكسوف فحينئذ عليك أن تجمع بين هذه الأمور، ثم لتعلموا أن هذا التعداد لا مفهوم له (لا مفهوم للعدد هنا) بل كل قربة تكون داخلة لكن النبي ﷺ يطول به الوقت لو عدد القرب.

فتذكر الله وتعين الملهوف وتفرج الكرب ونحو ذلك من القربات إلى الله حل وعلا؛ إذ كلها داخلة في ذلك.

والنبي ﷺ نص على هذه الأمور الستة لضرب المثل لا للحصر.

مما يؤكد عليه أيضًا هنا أن خطبة النبي بعد الكسوف كانت وجيزة وقصيرة لكن معانيها مهمة جدًا وعظيمة ولا غرو أيها الإخوة لأن النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم. ولذلك بمجموع الروايات التي جاءت في خطبته ﷺ ثبت أنه أشار إلى أمور متعددة:

الأول: ما ذكرناه وهو أن الخسوف والكسوف لا يكون لموت أحدٍ ولا لحياته.

والثاني: أشار إلى أنه رأى أبا خزاعة عمرو بن لحي رآه يجر قصبه في النار «يعني أمعاءه يجرها في النار» وما ذاك إلا لأنه أول من سيب السوائب وغير ملة إبراهيم عليه السلام.

ومعنى «سيب السوائب» السائبة عند أهل الجاهلية: هي أنهم يتركون الناقة فيحرمون أن يحمل عليها شيء وتترك للطواغيت والآلهة، هذه يقال لها: سائبة، فكان عمرو بن لحي هو أول من سيب السوائب.

وفي هذا نكتة لطيفة ومهمة جدًا، ليس الأمر مقتصرًا على هذا الرجل

فحسب وإنما كل من سن في الإسلام سنة سيئة، كل من أدخل على أرض المسلمين بدعة أو ضلالة أو فرق بين المسلمين فهو داخل في مثل ما دخل فيه عمرو بن لحي.

والنبي ﷺ أتى بمثال واحد؛ ولذلك قال في الحديث الآخر: «**من سن سنة سيئة في الإسلام فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص من أوزارهم شيء**».

وقال في كتابه الذي كتبه إلى هرقل كما في الصحيح قال: «**أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين**».

والأريسيون هم الفلاحون في مملكته.

ومعناه أن ضلالك وانحرافك وتوليك عن طاعة الله جل وعلا يحملك إثم كل من يتبعونك لأنهم ينظرون إليك وأنت على ضلالة فيقلدونك فتكون أنت من أحيا هذه السنة وأحيا هذا الشرك والبعد عن الله جل وعلا، فحينئذ يكون عليك هذا الإثم: «**فإن توليت فإن عليك إثم الإريسيين**».

ولذلك صح عند مسلم وغيره أن النبي ﷺ قال: «**ما من نفسٍ تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم كفلٌ من ذلك لأنه أول من سن القتل**»، فكل نفس تقتل الآن في هذا الوقت ظلمًا يعود الإثم إلى ابن آدم الأول لأنه أول من سن القتل، مع أن القاتل لا يسلم من الإثم.

فانظروا إلى خطورة هذا الأمر، ففيه الدعوة والتحذير إلى الذين يُدخلون على بلاد المسلمين ما ليس من دينهم في شيء، والذين يحاولون بكل طريقة جهلوا أو علموا أن يوقعوهم في البدع والضلالات والانحراف عن دين الله **جل** وعلا، فإنه سيموت قريبًا عاجلاً غير آجل مهما طال عمره ويبقى عليه الإثم إلى أن تقوم الساعة.

كل من عمل هذه المعصية فإنها ترجع إلى من سنها، وكذلك في المقابل

من سن سنة حسنة .

إذًا هذه إشارة مهمة والسلف الصالح ذكروا جملة من الذين أدخلوا الفساد إلى بلاد المسلمين ونبهوا على واقعهم ابتداءً من ابن سبأ الذي أدخل الفتنة على بلاد المسلمين وتسبب في مقتل عثمان رضي الله عنه الخليفة الراشد كما قيل :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرمًا ودعا فلم أر مثله مقتولاً

وتفرقت من بعد ذاك عصاهمو شققًا وأصبح سيفهم مسلولاً

السيف صار مسلولاً من بعد ما قتل عثمان رضي الله عنه ، فيكون على من تسبب في ذلك الإثم إلى يوم القيامة . ومثل ذلك ما حصل للمأمون كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية لما أدخل علم الكلام وعلم أهل اليونان والمنطق إلى بلاد المسلمين ، وفتنهم في دينهم ، والقول بخلق القرآن ، وامتحن الناس والأئمة والعلماء في ذلك قال شيخ الإسلام : إن الله لا يغفل عمل المأمون . لأنه أول من أدخل علم الكلام والقول بخلق القرآن إلى بلاد المسلمين .

إذًا هذا الأمر خطير فلينتبه كل واحد منا من كبير أو صغير ، حتى الرجل في أهل بيته فإن سن شيئًا سيئًا في بيته فعلّيه الإثم إلى أن تقوم الساعة .

كذلك نبه النبي ﷺ إلى الرحمة والتراحم والعطف والتعاطف بين المسلمين وذلك من خلال قوله : «**ورأيت امرأة تعذب في النار بسبب هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**» هذا فيه إشارة إلى الرحمة وجاء بمثال في الهرة لأن في كل كبدٍ رطبة أجرًا فقد نبه النبي ﷺ إلى ذلك ، ويستدل بالأدنى على الأعلى .

إذا كان هذا في حق الهرة فكيف فيما هو أعظم من ذلك ، في حق البشر بين بعضهم البعض الدماء معصومة والأموال أيضًا معصومة لا يُباح من المرء

لا عرضه ولا ماله ولا نفسه إلا بواحدة من ثلاث كما ذكر النبي ﷺ، ففي حديث النبي ﷺ في قصة الهرة هنا تنبيه للناس جميعًا أن الذي ينبغي أن يكون بينهم هو التراحم وأن التراحم ليس حكرًا على البشر فحسب فيكون حتى في البهائم؛ ولذلك صح عنه ﷺ أن جملاً جاء إليه يشتكي وهو يبكي ثم بكى النبي ﷺ وقال: «**من صاحب هذا الجمل؟ من رب هذا الجمل؟** فجاء رجل من الأنصار وقال: أنا يا رسول الله قال: **إنه اشتكى إلي أنك تجيعه ولا تطعمه فلا تشق عليه**».

إذًا هذا أمرٌ مهم ينبغي أن ينبه عليه.

كذلك أيضًا في الحديث ما يدل على التعوذ من عذاب القبر وذلك أن الناس يمتحنون في قبورهم، يمتحنون فيأتيهم الملكان فيسأل كل واحد منا في قبره عن دينه وعن ربه وعن نبيه، وأنه إن كان من أهل الجنة فهو في نعيم إلى أن تقوم الساعة ثم يدخل الجنة، وإن كان من أهل النار فإنه يأتيه من عذابها وسمومها أعاذنا الله وإياكم من ذلك، والحاصل والشاهد أيها الإخوة أن النبي ﷺ قال في ذلك موعظة وجيزة ولكنها مليئة بالحكم العظيمة التي ينبغي أن يتنبه إليها المسلمون كافة.

أسأل الله جل وعلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه، وأن يوفقنا للصالحات قبل الممات، وأن يرشدنا إلى استدراك الهفوات من قبل الفوات، وأن يلهمنا أخذ العدة للفوات قبل الموافاة، وأن يجعل اجتماعنا اجتماعًا مرحومًا، وأن لا يجعل فينا ولا معنا شقيًا ولا محرومًا، وأن يوفق ولاة المسلمين لما يحبه ويرضاه، وأن يؤمننا في أوطاننا، ويصلح أئمتنا وولاة أمورنا. إنه سميعٌ مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الفهـــرس

❊ ❊ ❊